نظريات تكوّن اللغة العربية نظرية الحقب التأسيسية أنموذجاً

Theories of the formation of the Arabic language Foundational Era Theory as a Model

أ.م.د.حامد كاظم عباس(*)

Dr.Hamid Kadhum Abbas

dr.hamid49@gmail.com

ملخص:

هـذا البحـث يُعنى بدراسـة النظريات التي حاولـت الكشـف عـن الينابيع الأولـى للعربية الفصحـى وتفسـير كيفيّـة ظهورهـا بصفتهـا لغة تخاطـب لمجتمع بأكمله، والوقوف بشـكل خاص عنـد نظرية (الحِقَب التأسيسـية)، وهي من النظريات المعاصرة التي حاولت الكشـف عن الينابيع الأولى للعربية الفصحى، وقد أثبت البحـث أنَّ الجمع بين اللغات العربية الشـمالية واللغات العربيـة الجنوبية وجعلهـا جميعاً من روافد العربية الفصحى مسـألة ليسـت جديدة، وأنَّ مقولـة نظريـة الحِقَـب فـي ان العربيـة الفصحـى خليط من لغات عدة غير منطقية ولا تنطبق على العربية الفصحى التي تتميَّز بالعمق التاريخي ولها مسيرتها اللغوية المتميزة.

الكلمات المفتاحية: تكـوّن العربية الفصحى ، اللسانيات التاريخية ، نظرية الحقب التأسيسية.

Abstract:

This research is concerned with studying the theories that tried to reveal the first sources of classical Arabic and explain how it emerged as a language of communication for an entire society, and to stand in particular at the theory of (founding eras), It is one of the

(*) كلية اللغات / جامعة بغداد

contemporary theories that tried to reveal the first sources of classical Arabic, The research proved that the combination of the northern Arabic languages and the southern Arabic languages, and making them all tributaries of Standard Arabic, is not a new issue. And that the theory of the eras that Classical Arabic is a mixture of several languages is illogical and does not apply to Standard Arabic, which is characterized by its historical depth and its distinct linguistic path.

Keywords: the formation of classical Arabic, historical linguistics, the theory of the foundational eras.

المقدمة:

للغــة تاريــخ نســتطيع مــن خلالــه معرفة ينابيعهــا الأولــى وتطورهــا والمراحــل التــي قطعتها فــي عمرها الطويل ، فضلاً عن أنَّ أية لغــة في العالم لها عناصر تكوين تشــارك بقدر ما في صياغة صورتها والتأثير فيها، ودراســة هذه العناصر يســهم في رصد مراحل تطورها ومعرفــة أســباب خصوصيتهــا ، ولعــل مــن أصعب الأمور وأكثرهــا تعقيداً في علم اللغات معرفة كيفيّة ظهور لغة ما بوصفها لغة تخاطب لمجتمعٍ بأكمله ، وبخاصــة في اللغات الموغلة فــي القدم كالعربية الفصحى ، وتجدر الإشــارة إلى أنّ عــدداً كبيراً من الباحثيــن يرى أنَّ بيننا وبيــن معرفــة بدايات العربيــة الفصحى جداراً مــن الزمن المظلم لا نســتطيع اختراقه ، فليس عندنا نصــوص عربية ترجع إلــى تلك العهود ، وأقــدم مــا عُثر عليــه من نصــوص العربية الفصحى لا يكاد يتجاوز القرن الثالث الميلادي ، ولذلــك فإنَّ هذا القســم مــن الباحثين يرى أنّ العربيــة الفصحــى يجب ان تبدأ دراســتها بكل ووجوهها ومستوياتها مع ظهور النص القرآني وجريانه على الألســنة. وعلــى الرغم من ذلك حــاول بعض الباحثين الكشــف عــن المراحل الأولــى للعربية الفصحى أو ما يُعرف (طفولة العربية الفصحى)، وهذا البحث يســلط الضوء على النظريات التي حاولت الكشف عن الينابيع الأولى للعربية الفصحى وتفسير كيفيّة ظهورها بصفتها لغة تخاطب لمجتمعٍ بأكمله ، والوقوف بشــكل خاص عند نظرية (الحقب التأسيسية) ، وهــي من النظريات المعاصــرة التي حاولت

الكشـف عن الينابيع الأولى للعربية الفصحى ، وذلـك من خلال اللسـانيات التاريخية ، أي من خلال المقارنات بين العربية الفصحى واللغات القديمة التي كانت منتشـرة في الجزيرة العربية واليمن والعراق وسوريا.وقد جعلت البحث في مبحثيـن وخاتمـة تضمنت أهم مـا توصل إليه البحـث من نتائـج، وقد جـاءت مباحث البحث ومحاوره على الشكل الآتي:

المبحث الأول: النظريات القديمة

المحور الأول: نظرية اللغة المشتركة.

المحور الثاني: نظرية العَوْد الإلهي (أونظرية لغة قريش).

المبحث الثاني: نظرية الحقب التأسيسية

المحور الأول: الحقب التأسيسية العربية.

المحور الثاني: حقبة الحيرة وأثرها في تكون العربية الفصحى.

أولاً: حقبة الحيرة التأسيسية وتشكيل العربية الفصحى.

ثانياً: مناقشة طروحات نظرية الحقب.

المبحث الاول: النظريات القديمة

المحور الأول: نظرية اللغة المشتركة:

تنقسـم اللغة العربية مـن الناحية الجغرافية على قسـمين هما : العربيـة الجنوبية والعربية الشـمالية ، وهذا هو التقسيم المشهور وقد درج عليـه علمـاء اللغة مـن مستشـرقين وعرب، ويطلق علماء اللغة على العربية الجنوبية اسـم (اليمنيـة القديمـة) أو (السـبئية) ، والسـبئية إحـدى لهجاتها التي تغلبت علـى بقية اللهجات في صراعها معها. (وافـي، ١٩٦٨م،ص١٩) أمـا القسـم الثانـي مـن العربيـة ، ونعنـي به العربية الشـمالية فهو أيضاً يقسـم على قسمين ، العربيـة البائدة ، أو عربية النقوش ، والعربية الباقيـة أو (العربيـة الفصحى).ويطلق علماء اللغـة مصطلح (العربية البائـدة) على لهجات لمجموعـة مـن القبائـل العربيـة التـي كانـت تسـكن شـمال الحجاز علـى مقربةٍ مـن حدود الآراميين ، وقـد اندثـرت هذه اللهجـات قبل ظهور الإسـلام ولم يبق من آثارها إلا النقوش. (وافي، ١٩٦٨م،ص٩٣) وقد تبيّن لعلماء اللغة بعـد تحليل هـذه النقـوش (أنّها قليلـة المادة ، نـزرة الأهمية ، ولا تعطينا فكـرة عن الطفولة الأولى للعربيـة) (الزيدي ،١٩٨٧م،ص١١٢) و(أنيـس ،٢٠٠٣م،ص٣٢-٣٣) ،فضـلاً عـن تأثرها باللغات السـامية المجـاورة في العراق والشـام كالآرامية، ولذلك رأى بعض الباحثين أنَّ هـذه اللهجـات ليسـتْ خالصـة العربيـة.) ولفنسـون،١٩٨٠م،ص١٦٢-١٦٣) و(عبـد التـواب،١٩٩٩م،ص٥١) والقسـم الثانـي مـن العربية الشـمالية هـو العربيـة الباقية (أو الفصحـى)، وهي لغـة القـرآن الكريم والأدب الجاهلـي، وهـذه اللغـة وصلـت إلينـا فـي صورتين، صورة أدبية تتمثل بالأدب الجاهلي،

شـعره ونثـره ، وصورة شـعبية (أو ما يُعرف باللهجـات)، تتمثل في الكلام الشـائع في الحياة اليوميـة للعرب، ولـم يصل إلينا مـن الصورة الثانية أعمال كاملة(وإنما نلحظها فيما روّي لنا فـي بطون كتب اللغة والنحـو والأدب، متناثراً مـن لهجات القبائل العربيـة الخاصة بها) (عبد التواب ،١٩٩٩م،ص٧٧).

وعلـى الرغـم مـن أنّ العربيـة الشـمالية بشـطريها البائدة والباقية نشأَت في أقدم موطن للسـاميين – بحسـب قول كثير مـن الباحثين – لكن في الوقت نفسه نجد أنَّ آثارها التي وصلت إلينـا تعدُّ من أحدث الآثار السـامية ؛ إذ إنَّ أقدم ما وصـل إلينا من العربيـة الباقية (الفصحى) لا يتجـاوز القـرن الخامس بعد الميـلاد ، وما وصل إلينـا من العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول قبـل الميلاد ، وهذا لا يعنـي أنَّ عربيتنا ليسـت موغلة فـي القدم ، بل يعنـي أنّنا لا نجد شـيئاً مكتوباً نعتمد عليه في بيان تاريخ النشـأَة ومراحـل تطورها؛ (وافـي،١٩٦٨م،ص٩٣) (واسـتيتية،٢٠٠٨م،ص٥٩٥) وذلـك بسـبب ضياع كثير من النصوص القديمة ، وقد صرح بهـذا المعنى بعض علماء اللغـة القدامى. (ابن فارس ، ٢٠٠٥م،ص٦٣) ومن جانب آخر فإنَّ عـدم معرفـة المراحل الأولى فـي تاريخ اللغة العربيـة الفصحى يعني أننّـا نفتقر إلى الحلقات الأولى من تاريخها، فـالأدب الجاهلي عامة لا يمكن اعتباره مادة أولـى تمثل طفولة العربية، فهـو لا يختلـف كثيـراً عن اللغة فـي العصور الإسلامية، أو بقولٍ آخر:إنَّ لغة الأدب الجاهلي لغة ناضجة بمستوياتها كافة، النحوية والصرفية والصوتية والدلالية، وليس من المعقول إنَّ هذه اللغـة بدأت بهذه النصـوص الجاهلية، فلابدَّ أنْ تكـون العربيـة قد قطعـت مراحـل طويلة قبل أنْ تصـل إلـى هذا المسـتوى مـن النُضج في مستوياتها كافة. (السامرائي ،١٩٨٧م،ص٣١)

وفي ظل عدم معرفـة بدايات اللغة العربية ومراحل تكوين الفصحى حاول اللغويون تفسير ظهـور العربية الفصحى فـي ضوء ما موجود فـي التـراث الجاهلي بصورته الأدبية(الشـعر والنثـر)،أو صورتـه الشـعبية،(أي اللهجـات القبليـة)، وهو مـن حيث الزمن يمتـد إلى مائة وخمسين سنة قبل الإسلام، وقد لاحظ اللغويون أنّ اللغة الفصحى التي كُتِب بها الشعر الجاهلي (لغـة موحـدة لا تـكاد تتضمن شـيئاً من تلك المميـزات اللهجيـة التـي تنطق بهـا القبائل)) الزيـدي ،١٩٨٧م،ص١١٦)و(عبـد التـواب ،١٩٩٩م،ص٧٧)، ولأَجل تفسير ظاهرة غياب اللهجـات العربية عـن اللغة الفصحـى الأدبية ذهـب اللغويون العـرب القدماء وعدد كبير من المعاصرين إلى (مبدأ اللغة المشتركة)، أي أنّ اللهجات العربية كانت متفرقة أصالة وتجمعت كلهـا أو محاسـنها فـي الأقـل فـي لغـة أدبية

مشتركة هيّأت لأهل الإبداع اللغوي لغة ابداعية يستطيعون التنافس في ضوئها، وفي هذا المعنى يذكر د. رمضان عبد التواب في شأن اللغة المشتركة:(هي لغة موحدة اعتمدت في نشأتها على بعض الصفات الطيبة في اللهجات العربية المختلفة، سواء في ذلك لجهة قريش أو غيرها))عبد التواب ،١٩٩٩م،ص٨٤) .وقد نشأت هذه اللغة الموحدة– بحسب مقولة نظرية اللغة المشتركة– وإزدهرت قبل مجيء الإسلام في مكة المكرمة بفعل عوامل مختلفة حملت هذه اللهجات على التقارب والإختلاط، فاللغة المشتركة أو الفصحى حسب هذا القول قد تكوّنت نتيجة إلتقاء لهجة قريش مع اللهجات العربية التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية. (الزيدي ،١٩٨٧م،ص١١٧) و(عبد التواب ،١٩٩٧م،ص١٦٧).

وعلى الرغم من أنَّ القول بمبدأ اللغة المشتركة كان لغاية السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي من المسلمات المتفق عليها في الدراسات اللغوية العربية ، وعلى الرغم من أنَّ عدداً كبيراً من اللغويين القدماء والمعاصرين قالوا بمبدأ اللغة المشتركة ، ووجدوا في هذا القول حلاً لمشكلة غياب اللهجات القبلية شبه الكامل عن اللغة الأدبية الفصحى ، فإنَّ قسما آخر من اللغويين المعاصرين رأى أنَّ مبدأ اللغة المشتركة (وهم شاع حتى صار حقيقة أو كالحقيقة) (مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩،ص٣٥٩)، بحجة أنّه تأسس على (وفق قياس مخطوء نظر في طبيعة علاقات لهجاتنا العامية – اليوم – باللغة الفصحى التي نتداولها في نتاجنا العلمي والأدبي فصار يسيراً عليه أنَّ يقيس الماضي اللغوي على الحاضر))مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩، ص٣٤٦)، وأنَّ (كل ما يُقال عن العلاقة بين اللهجات العربية القديمة والعربية الفصحى ، فروض أو تخمينات) (عبد التواب ،١٩٩٩م،ص٧٦)، لأننّا لا نمتلك معلومات كافية عن تلك اللهجات ؛ بسبب اهتمام اللغويين القدماء بدراسة الفصحى، وانصراف جهودهم إليها ، وبالمقابل اهمالهم اللهجات القبلية إلا في حدود ضيقة تتمثل في ذكرهم بعض خصائص هذه اللهجة أو تلك ليفسروا بها قراءة قرآنية أو ظاهرة لغوية (الزيدي ،١٩٨٧م،ص٢٠٧)، فالمعلومات التي نمتلكها عن اللهجات القبلية لا تتعدى الإشارات الموجزة ، وهذه الإشارات لا تتجاوز القلب والإبدال وبعض المسائل الصوتية التي أدخلها بعض اللغويين في باب (الرديء المذوم من اللغات))السيوطي ، ٢٠٠٩م،١/ ص١٨١(و) السامرائي ،١٩٨٧م،ص٣٦)، كالكشكشة والكسكسة والتلتلة... وفضلاً عن ذلك فإنَّ الدرس اللغوي المعاصر يؤكد أنَّ التغاير اللغوي مهما كان قليلاً لا يكون اختياراً ، وإنّما تفرضه الظروف الذاتية والموضوعية

فرضاً (فندريس ،٢٠١٤م،ص٣٤٨)و (مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص٣٥٢)، أو بقول آخر إنَّ اللغة تتشكل ولا تُفرض، وهذا لا يتفق مع ما يقوله أصحاب نظرية اللغة المشتركة من أنَّ قريشاً كانت تختار الأفصح من الألفاظ الموجودة في لهجات القبائل العربية الأخرى فزادتْ ثروة ألفاظها ما جعلها تسير نحو النمو والتطور وخلتْ من العيوب (ابن فارس ، ٢٠٠٥ م ، ص٥٢) و(والصالح ، ٢٠٠٩م،ص١٠٩) و(الزيدي ،١٩٨٧م،ص١١٧).

وفي هذا الشأن – أيضاً – يرى المستشرق ولفنسوُن أنَّ الاعتماد على قصائد الشعر الجاهلي التي لم تَكن مدونةً من قبل نهاية العصر الأموي واتخاذها أساساً لبحث نشأة اللغة العربية لا يصل بنا إلى ما نريد ، وهو يرى أنَّ (صُحف القرآن الكريم هي التي يجب البدء بالبحث فيها عن نشأَة اللغة العربية)) ولفنسون،١٩٨٠م، ص١٧٠). وقد تابعه على هذا الرأي بعض اللغويين المعاصرين العرب الذين أكدوا أنَّ لغة الشعر الجاهلي لا يمكن أنْ تعطي الباحث الوثائق التاريخية التي يهتدي بها إلى العربية القديمة، وإنّ اللغة العربية الفصحى تبدأ دراستها بكل وجوهها ومستوياتها مع ظهور النص القرآني وتداوله على الألسنة ، أما ما قبل النص القرآني (فالدراسة لا تتجاوز النصوص التي وصلت إلينا شفاهاً على ألسن الرواة .... مع النظر إلى ما حصل من تغيير أو تحريف عبر أزمان تداولها))زاهد ، ٢٠١٢م ،ص٥) و(السامرائي ، ١٩٧٨م ، ص٦٧) و (أنيس ، ٢٠٠٣م ، ص٣٤) الذي يمتد إلى ما يقارب ثلاثة قرون.

ولابدَّ من الإشارة إلى أنّ الدراسات اللسانية المعاصرة تؤكد أنَّ للغة طريقين متقابلين ، وهما طريق التفتت اللغوي، أي انقسام اللغة إلى لهجات محلية عدة تتميز الواحدة عن الأخرى بمميزات ظاهرة وواضحة، وطريق التوحيد اللغوي ، أي أنْ تتوحد مجموعة من اللهجات أو اللغات لتكوين لغة مشتركة ، ولكن طريق الانقسام في اللغات أقوى من طريق التوحيد) فندريس ،٢٠١٤م،ص٣٠٧-٣٠٨) و(السامرائي ،١٩٨١م،ص٣١) و(عبد التواب ،١٩٩٧م،ص١٦٦)، وبمعنى آخر إنَّ الانقسام هو عملية التطور الطبيعية للغة ، وإنّ طبيعة اللغات تميل إلى الانقسام والتوزع ، في حين إنّ عملية التوحيد لا تتمّ إلا بفعل عوامل خارجية - في الأعم الأغلب- وفي هذا الشأَن نجد أنّ القائلين بنظرية اللغة المشتركة لم يوضحوا لنا كيف تأتى للعرب إنشاء هذه اللغة المشتركة (الفصحى)، والحال إنَّ لهم لهجاتهم المحققة لحاجاتهم والمعبرة عن أغراضهم ، فضلاً عن أَنّنا لم نجد من يصرح بوجود قوة سياسية منظمة أو دولة قائمة عملت على إنشاء

هذه اللغة (الفصحى) ، والتشجيع على انتشارها ، ذلك أنَّ اللغة المشتركة – بحسب مقولة فندريس – (تدين بوجودها إلى إنتشار قوة سياسية منظمة ، أو إلى تأثير طبقة اجتماعية غالبة ، أو إلى تفوق أحد الآداب) (فندريس ،٢٠١٤م،ص٢٢٨). وزيادة على ذلك فإنَّ الدراسات اللسانية المعاصرة تؤكد أنَّ من أهم خصائص اللغة المشتركة إنّها لغة وسطى تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً، وفي حالة انتشارها تبدأ العناصر المشتركة الداخلة في تكوينها في الازدياد ، وذلك يؤدي بالضرورة إلى هبوط مستواها (وتصير بالتدريج كثيفة رتيبة لا لون لها ، وعندئذٍ تتميز بالخصائص السلبية ، أي الضعف والسوقية))فندريس ،٢٠١٤م، ص٣٤١). والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هل إنَّ العربية الفصحى لغة رتيبة لا لون لها ، وتتميز بالضعف والسوقية؟!! هذا ما لم يقله أحد من العرب أو المستشرقين أو غيرهم ، بل من الإمور التي أذهلت حتى المستشرقين ظهور العربية فجاة بصفتها لغة تامة متكاملة ، في نحوها وصرفها وبيانها وسعة مفرداتها ، حتى إنّ بعض المستشرقين يرفض تسمية العرب القدامى بالجاهليين؛ لأنَّ من كانت لغته على هذا المستوى من الرقي لا يجوز أنْ ينعت بالجاهل، (فريحة،١٩٨١م،ص٦٦)(والسامرائي ، ١٩٧٨م ، ص١٤٦) فالنصوص الجاهلية تعطينا نماذج عالية من حيث قدرة اللغة على أداء المعاني ، والتعبير(عن النواحي المادية وانصرافها إلى المعنويات من الأمور توسعاً ومجازاً))السامرائي ،١٩٨٧م،ص٣١). وهذا يعني أنَّ أَهم خصائص اللغة المشتركة لا تنطبق على العربية الفصحى، وأنَّ نظرية اللغة المشتركة أصبحت غير مقنعة للمحققين من الباحثين العرب أو المستشرقين، بعد أنْ كانت من المسلمات المتفق عليها عند الباحثين العرب في القرن الماضي.

المحور الثاني: نظرية العَوْد الإلهي:

تدّعي هذه النظرية أنَّ اللغة العربية الفصحى هي لغة قريش دون سواها من قبائل العرب استناداً إلى ما يُعرف بمبدأ العَوْد الإلهي الذي يرتكز على ملاحظة ما في القرآن الكريم من مبدأ ومعاد (ليس بمعناهما الشرعي أو اللغوي بل بوصفهما مبدأ كونيّاً شاملاً يؤكد العود إلى البدء بعد المرور بمرحلة وسطى هي مرحلة انتقالية تربط بينهما) (مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص٤٤)، بمعنى أنَّ المبدأ الأصل هو التوحيد الديني الذي ينحرف به فعل الإنسان إلى الإشراك الديني لتعيده النبوة اللاحقة إلى أَصله التوحيدي. وإذا نظرنا إلى هذا المبدأ من منطلق ديني لغوي معاً فسنجد أنَّ هناك التوحيد الديني والتوحيد اللغوي، ويقابلهما الإشراك الديني والتعدد اللغوي (أي تعدد اللهجات)،(وأنَّ

إعادة التوحيد اللغوي تتمُّ بإعادة التوحيد الديني بالنبوة، ومن هنا كانت الفترات بين الرسل هي دائمـاً فتـرات التفتت اللغوي والتعـدد اللهجي، وهـو أمـر يصل إلـى منتهاه بسـيادة لهجة ما، تهيئ لنزول رسـالة توحيدية على وفق لسانها) (مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص٤٤). وتفترض هذه النظرية أيضاً أن العربية الفصحى كانت في قريش وقد ورثتها عن نبي الله اسـماعيل (A)، وبقيـت محافظة عليها، وهو مـا يجعل لهجات القبائـل العربيـة الأخرى انحرافـاً عن الأصل وليس لهجات موازية للعربية الفصحى.)مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص٣٨ ، ٨٩ ، ٣٥٢)

وهنا لابدَّ من الإشارة إلى أنَّ القول بأن اللغة الفصحى هي لغة قريش ليس بالجديد) الصالح ، ٢٠٠٩م ، ص ١٠٩-١١٠)، وزيـادة على ذلك نجد أنَّ أَصحاب نظرية اللغة المشتركة يقولون إنَّ إطلاق لغـة قريش على اللغة الفصحى ليس أمراً غريباً ، وفي هذا المعنى يقول د. رمضان عبد التواب : (حقاً يمكن القول بأَنَّ لهجة قريش أَسـهمت في تكوين العربيـة الفصحى بعناصر كثيرة ، فلا مبالغة – إذن – في إطلاق عبارة (لغة قريش) على اللغة العربية الفصحى) (عبد التواب ،١٩٩٩م،ص٨٤). ومن جانب آخر فإنَّ القول إنَّ العربية الفصحى أصبحت لهجة سائدة بفعـل التوحيـد الديني– بحسـب نظريـة العَوْد الإلهـي – يقترب كثيراً مـن المقولة التي تبناها الدكتور إبراهيم السـامرائي وبعـض الباحثين من العرب والمستشـرقين التي ترى أنَّ العربية توحدت بفعل النص القرآني، وأَنّها حتى عصر القـرآن كانت مفتقـرة إلى التوحيد)السـامرائي ،١٩٨٧م، ص٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٨٣).

، وأنَّ الحدث العظيم المتمثل بنزول القرآن الكريم (قـد عمل على توحيـد العربية وطبعها بطابع خاص فيه الشـمول وفيه العموم ، بحيث تيسّر لهذه اللغة أنْ تكون لغة العرب عامة وإنّها تغلبت على الكثير من معالم اللهجات السـائرة) (السامرائي ،١٩٨٧م، ص٣٥) ، وهذه المقولة تؤكـد أنَّ وجـود اللهجـات القبلية السـائرة قبل نزول النـص القرآني ، وتنصلها عن التمسـك بقيـود الإعراب دليل على ظهـور حقبة جديدة فـي تاريخ العربية أوشـكت أنْ تنتشـر لولا ما كان من أمر نزول القرآن الكريم. (السـامرائي ،١٩٨٧م، ص٣٦)

وإذا كانـت العربيـة الفصحى لـم تكن هي اللغة السـائدة قبل نزول القـرآن الكريم ، وهي قد توحدتْ بفعل النص القرآني – بحسـب قول د. إبراهيم السـامرائي – فيحق لنا أنْ نتسـاءَل عن عائدية اللغة أو اللهجة التي نزل بها القرآن الكريـم ، هل هي لغـة قريش أو لغة غيرها من لغـات القبائل الأخرى ؟ وبحكم كون الرسـول محمد (n) من قريش ، وبحكم المكان الذي نزل فيـه القرآن وهـو مكة المكرمـة ، فالأرجح أنْ

تكـون لغة القـرآن هي لغة قريش دون سـواها مـن لغـات القبائل ، وهـذا يعنـي أنّ مقولة د. إبراهيم السامرائي تتفق مع مقولة نظرية العود الإلهـي فـي أنّ اللغة الفصحى هـي لغة قريش وإنْ لـم يصرح بذلك ، ولكن مع وجود اختلاف فـي نظرة هاتين المقولتين إلـى اللهجات القبلية الأخـرى ؛ إذ إنَّ د. إبراهيـم السـامرائي يرى أنَّ هـذه اللهجـات هي لهجـات موازية للعربية الفصحى ، وقد أوشـكت أنْ تكون لغات مستقلة لـولا ما كان مـن أمر لغة التنزيـل التي عملت علـى توحيد العربية (وقضـت بذلك على آثار اللهجـات الإقليميـة)؛ (السـامرائي ،١٩٨٧م، ص٣٤)، في حين إنَّ نظرية العود الإلهي ترى أنَّ هذه اللهجات القبلية هي مجرد انحرافات عن اللغـة الفصحى التي ظلت نقية عند قبيلة قريش ، وذلـك بفضل ما لقبيلـة قريش من خصوصية داخل المحيط العربي (جعلتها تحتفظ بأصولها العرقيّـة واللغوية مـع أنّها خالطـت غيرها) (مهـدي الغانمـي ، ٢٠٠٩م ، ص٦٥). وعنـد النظر والتدقيق في أقـوال نظرية العود الإلهي نجد أنّها لا تختلف عن نظرية اللغة المشـتركة، فهي مجـرد فروض وتخمينـات لا تصمد أمام البحـث العلمي، فهذه النظرية – كما هو واضح – تفتـرض أنَّ العربية الفصحى بقيت نقية عند قريـش ولم تتأثر بمـا حولها، وهذا أمر يصعب تحقيقـه علـى أرض الواقـع ؛ ذلـك إنَّ النقـاء اللغوي بحسـب الدراسات اللسـانية المعاصرة هـو أقرب إلـى المثاليـة غير المتحققـة، يقول فندريـس:(ولما كان من النـادر أنْ يعيش فرد محصوراً في مجموعـة اجتماعية واحدة، كان من النـادر أيضـاً أنّ تبقى إحـدى اللغات دون أنْ تنفـذ إلى مجموعات مختلفـة ، إذ يحمل كل فـرد معه لغة مجموعته ويؤثـر بلغته على لغة المجموعة المجاورة التي يدخل فيها) (فندريس ،٢٠١٤م،ص٣٠٦ - ٣٠٧). وبحكـم معرفتنـا التاريخية أنَّ قريشا في مكة كانت لهم اتصالات وعلاقات بكثير مـن قبائل العرب، يمكن القول إنَّ لغة قريش تفقد الكثير من خصائصها اللغوية بفعل التأثير والتأثر شـأنّها في ذلك شأن كل لغة تعيـش في مجتمع ضخم ورقعة مكانية واسـعة (السـامرائي ،١٩٧٨م،ص٦). وهـذا يعني أنَّ فرضيـة النقـاء اللغوي هذه غيـر منطقية، ولا يمكـن قبولها، فضلاً عـن أنَّ القول إنَّ لغة نبي الله اسـماعيل (A) هي اللغـة العربية الفصحى هو قول ينقصه الدليل العلمي والتاريخي.

وزيادة على ذلك فإنَّ هذه النظرية تنظر إلى اللهجات القبلية الأخرى بصفتها انحرافات عن اللغة الفصحى وليس لهجات موازية لها ، وهذه واحدة من المؤاخذات المهمة على هذه النظرية؛ لأنَّ هـذه اللهجات قد جاءت فـي القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وليس في القرآن لغة من لغات العرب إلا وهي فصيحة صحيحة، ومن

ذلك – على سبيل المثال – لغة ((يتعاقبون)) ، وهي اللغة التي اشتهرت باسم لغة ((أكلوني البراغيث))، وهي لغة بني الحارث بن كعب ، يقولون (أكلوني البراغيث) ، بدلاً من (أكلتي البراغيث) ، إذ الأصل في الفعل إذا تقدم في الكلام أنْ يكون غير مسند إلى الضمير ما دام الاسم الظاهر قد جاء بعده في الكلام) سيبويه ، ١٩٦٦م ، ٢/ص٤١)(والزيدي ، ١٩٨٧م ، ص ٢٥٤ – ٢٥٥)، قال سيبويه:(وإعلم أنّ من العرب من يقول: ضربوني قومُك، وضرباني أخواك) (سيبويه ،١٩٦٦م،٢/ ص٤٠)، وهذا يسمى في الدراسات اللسانية المعاصرة الخلاف اللهجي في التراكيب ، أو الاختلاف في قواعد بناء الجمل (الزيدي ،١٩٨٧م،ص٢٥٤)،ومن أَمثلة مجيء هذه اللغة في النص القرآني قوله تعالى} :ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ{(المائدة: ٧١)(،وقوله تعالى }وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا{(الأنبياء:٣) وقد ذهب بعض المفسرين في توجيه هذه الآيات على هذه اللغة في وجه من وجوه إعرابها، قال الزجاج في معاني القرآن: " كثيرٌ منهم ": (وجائز أنْ يكون جُمع الفعل مُقدَّماً كما حكى أهل اللغة : أكلوني البراغيث)) الزجاج ، ٢٠٠٤ م ، ٢/ ص١٥٨)، وقال الرازي في تفسير قوله تعالى : }وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا{:(أبدل " الذين ظلموا" من " أسروا" اشعاراً بأنّهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به ، أو جاء على لغة من قال : أَكلوني البراغيث ...))الرازي، ٢٠١٣م، ٢٢/ ص١٢٢). وقد جاءت هذه اللغة أيضاً في الحديث النبوي الشريف ، ومن ذلك ما روّي عن الرسول محمد (n) قوله : ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار))مسلم بن الحجاج ، ١٣٣٤ه ، ٢/ ص١١٣), بدلاً من : يتعاقب فيكم ... كما هي الحال في اللهجة الفصحى ، وفضلاً عن ذلك فقد جاءت هذه اللغة في الشعر العربي ، وكان ابن مالك (ت ٦٧٢ه) أول من أطلق عليها لغة (يتعاقبون))ابن عقيل ١٩٨٠م ، ١/ ص٨٥) بدل لغة (أكلوني البراغيث) ، وقد ذكر ابن عقيل (ت٧٦٩ه) في شرح ألفية ابن مالك شواهد كثيرة على هذه اللغة منها قول أبي عبد الرحمن محمد العتبي (ابن عقيل ١٩٨٠م ، ١/ ص٨٣):

رأين الغواني الشيبَّ لاح بعارضي فأَعْرَضَن عني بالخدود النواظر

فقد وصل الشاعر الفعل بنون النسوة في قوله : (رأين) مع وجود الفاعل الظاهر بعده ، في حين أنَّ القياس على اللغة الفصحى أنْ يقول : (رأتْ الغواني).

وإذا انتقلنا إلى المستوى الصوتي نجد أنّ العربية الفصحى قد احتفظت بالهمز أو ما يُعرف باسم النبر ، مع أنَّ قريشاً لا تهمز ، بل تسهّل الهمز ، قال ابن منظور:(والنبر همز

الحـرف ولم تكن قريش تهمز في كلامها) (ابن منظور ، ٢٠٠٥م ، ١٤ / ص١٧٥). وتسـمى عملية التخلص من الهمز بـــ (تسهيل الهمز)، ويتـمّ التخلص من الهمز أما بحذفه أو بقلبه إلى حرف مـن حروف الليـن الثلاثة:الألف والواو والياء، ويتضح هذا الخلاف في اللهجات– على سـبيل المثـال – في (فعـل وأفعـل) ، مثل: (نَكِرَ وأَنْكَرَ)، وهما بمعنى واحد، (السجسـتاني ، ١٩٧٩م ،٩٤) و(الزيـدي ، ١٩٨٧م ، ص٣١١) وقـد جـاءت اللفظتـان كلتاهمـا في النص القرآني، قال تعالى: }فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ{ (هود: ٧٠(،بتسـهيل الهمز، وقال تعالى: } قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ{(الحجر: ٦٢)، بتحقيق الهمز، أي إثباته .

وتجمـع الروايـات القديمة علـى أنَّ البيئة الحجازيـة (قريش وما جاورها) كانت تسـهل الهمز، والبيئة البدوية (تميم وما جاورها) كانت تحقـق الهمز (عبد التـواب ،١٩٩٩م،ص٨٣) (وصالـح ، ٢٠٠٩م ، ص٧٨)، وقـد أخـذت العربيـة الفصحـى تحقيـق الهمـز مـن تميم ، وأصبح الخطيب والشاعر يحاول تحقيق الهمز في كلامه، جاء في البرهان:(قول من قال: نزل القرآن بلغـة قريش معناه عندي : في الأَغلب ؛ لأنَّ لغـة غير قريش موجـودة في جميع القرآن مـن تحقيق الهمز ونحوهـا ، وقريش لا تهمز) (الزركشـي ، ١٩٥٨م ، ١/ ص٢٨٤).وتجدر الإشـارة إلى أنَّ ابن جنـي اللغوي (ت٣٩٢ه) ، والمعـروف بعنايتـه بدقائق اللغة وتشـعباتها عقد في كتابه (الخصائص) فضلاً خاصاً سـماه ، (اختـلاف اللغات وكلها حجـة) (ابن جني ، ٢٠٠١م ، ص٣١٤)، ويعنـي باللغـات لهجات القبائـل العربيـة المختلفـة ، وهو يـرى جواز الاحتجاج بها جميعاً.

لهـذه الأَسـباب يمكننـا القـول إنَّ اللهجات القبلية ليسـت انحرافات عـن العربية الفصحى ، بـل هي لهجـات مسـتقلة موازية لهـا بدليل وجودهـا في القـرآن الكريم والحديـث النبوي ، وأنَّ العربيـة الفصحى التي نـزل بها القرآن الكريـم ليسـت لغة قريـش فقـط ، بدليل وجود الهمـز فيهـا وقريش لا تهمـز، ولهـذا نجد أنَّ عدداً كبيراً من الباحثين العرب والمستشـرقين يرفضـون مقولـة أنَّ العربيـة الفصحـى هـي لغـة قريش دون سـواها مـن القبائـل العربية (عبد التـواب ،١٩٩٩م،ص٨٠) و(ولفنسـون ،١٩٨٠م،ص٢٠٧) و(السـامرائي،١٩٨٧م، ص٥٥) و (صالـح ، ٢٠٠٩م، ص١٠٩)، علـى الرغم من تأكيدهم أنَّ لغة قريش قد أمدتْ العربيـة الفصحـى بعناصر كثيـرة، وقد ذهب المستشرق نولدكه إلى أنَّ هذه الفكرة نشأَت في العصر الأمـوي لإظهار تفوق قريش على بقية

القبائل.)ولفنسون ،١٩٨٠م،ص٢٠٧).

المبحث الثاني: نظرية الحقب التأسيسية

المحور الأول: الحقب التأسيسية العربية:

تقوم هذه النظرية على مبدأ (الحقبة التأسيسية) ، والمقصود الحقبة التأسيسية، أي سلطة حاكمة جديدة تكونها عصبة ما ، أو قبيلة ما ، بمعنى أنَّ هذه العصبة يجمعها شعور عصبي واحد (العصبية) ، وحين تتمكن قبيلة ما أو عصبة ما من تأسيس دولتها فإنّها تفرض ثقافتها الخاصة بقصد أو بغير قصد ، وهكذا يحدث تزامن بين تأسيس دولة جديدة وتأسيس ثقافة جديدة ، وكل عصبة جديدة تؤسس للغة أو لهجة جديدة وآلهة جديدة ، وهي بهذا العمل تحاول أنْ تقصي الحقبة السابقة عليها، لتزعم أنَّ التاريخ يبدأ بها، فتنشر لهجتها الخاصة وتقاليدها الثقافية، أو بقول آخر إنَّ الحقبة الجديدة تقوم بأمرين في وقت واحد، الأول: إلغاء الحقبة الثقافية السابقة، والثاني هو الاستفادة من تراثها لتشكيل أدب أو ثقافة جديدة)سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٩-١٠). ولكل حقبة لهجة تنفرد بها، وهذه اللهجة تختلف عن اللهجات أو اللغات الأخرى بصفات، وتتفق معها بصفات أخرى، وهذه اللهجات أو اللغات بعضها يؤثر في بعض، وإنَّ العربية الفصحى– بحسب مقولة هذه النظرية– هي نتيجة ما انتهت إليه هذه اللغات أو اللهجات في تطورها عبر مسيرتها التاريخية، وقد تبلورت– أي العربية الفصحى– وتكونت في مستوياتها التي هي عليها اليوم في مملكة الحيرة جنوب العراق قبل أنْ تنتقل إلى بلاد الحجاز في الجزيرة العربية، وتصبح هناك هي اللغة المسيطرة (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٣٨ ، ٢٧٣ ، ٢٩٩). ولكي نفهم هذه النظرية لابدَّ من الإشارة إلى أنَّ المنطقة العربية قد نشأت فيها عدة حِقَب تأسيسية في الشمال والجنوب، ويمكن تقسيم اللهجات في المنطقة العربية بحسب السلالات الحاكمة على قسمين:

الأول: لهجات السلالات الجنوبية:

لهجة معين (أو معان):

وهي اللهجة المنسوبة إلى المعينيين الذين أَسسوا في القسم الجنوبي من بلاد اليمن مملكة قديمة، ويرى بعض الباحثين أنَّ تاريخها يعود إلى القرن الثامن (ق.م))صالح ، ٢٠٠٩م ، ص٥) و(حجازي ، د.ت ، ص ١٨٤-١٨٥)، إلا إنَّ النقوش التي وصلت إلينا التي تحمل آثار هذه اللغة تعود إلى حقبة ما بين القرن الثاني والرابع قبل الميلاد، ومن أَهم سمات هذه اللهجة استعمال الحرف (سين) بدل همزة التعدية في العربية، فيقال (سفعل) بدل (أفعل))حجازي ،

د.ت، ص ١٠٦).

لهجة قتبان:

تُنسب هذه اللهجة إلى قبائل قتبان، والقتبانيون شعب عربي أَنشأ مملكة في المنطقة المسماة بهذا الاسم. وهي المنطقة الساحلية التي تقع شمال عدن، ووصلت هذه اللهجة إلينا عن طريق مجموعة من النقوش التي عُثِر عليها في بلاد اليمن.)الزيدي ،١٩٨٧م،ص١٠١) و (الصالح ، ٢٠٠٩م ، ص٥٣) وتشترك لهجتهم مع المعينية في الوزن الصرفي (سفعل) بدل (أفعل) في الفصحى، وفيها علامة لتعريف المثنى هي الحاق علامة (نيسن)، وهناك ايضاً علامة لتنكير المثنى هي (ميو)، ومن خصائصها ايضاً استعمال (هو): اسم إشارة للمذكر المرفوع، و(هوت): اسم إشارة للمذكر المنصوب)سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ١٧).

اللهجة السبئية:

تُنسب هذه اللهجة إلى السبئيين الذين أَقاموا مملكتهم بعد زوال مملكة المعينيين ، وقد ذكرها القرآن الكريم ، قال تعالى : }لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ{ (سبأ: ١٥)، وقد وصلت إلينا عن طريق نقوش عُثِر عليها في بلاد اليمن وبخاصة في منطقة (مأرب))الصالح ، ٢٠٠٩م ، ص٥٣) و(استيتية ، ٢٠٠٨م ، ص ٥٩٣) و(الزيدي ،١٩٨٧م،ص١٠٠). وتتميز هذه اللهجة باستعمال هاء التعدية (هفعل) بدل الهمزة في الفصحى (أفعل) ، ولذا يُعدُّ – مثلاً – الفعل (أَراق) بوزن (أفعل) أصيلاً في الفصحى، بينما يعدُّ الفعل (هراق) دخيلاً من العربية الجنوبية إلى الفصحى، ومن السمات الأساسية للسبئية وجود أداة تعريف هي حرف النون التي تضاف إلى آخر الكلمة ، وأداة تنكير هي حرف الميم، فالملك بالتعريف (ملكن)، وبالتنكير (ملكم) (حجازي ، دون تاريخ ، ص ١٨٥) و (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ١٨).

اللهجة الحضرمية:

تُنسب هذه اللهجة إلى قبائل حضرموت التي أنشأَت مملكة قوية في المنطقة الجنوبية من اليمن والمسماة بهذا الاسم ، وقد استمرت من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي ، وقد وُجدت أكثر نقوشها في منطقة شَبْوَة ووادي حضرموت وساحل حضرموت (الزيدي ،١٩٨٧م،ص١٠٠) و(الصالح ، ٢٠٠٩م ، ص٥٣). وتنفرد هذه اللهجة ببعض السمات الصوتية وهي إنّها تعامل صوتي الشين والثاء بوصفهما صوتاً واحداً وليسا صوتين منفصلين ، والشيء نفسه بالنسبة لصوتي الزاي والذال ، ولهذا يُكتب اسم (العز) في الحضرمية بصيغة (العذ) ، فضلا عن أنَّ أداة التعريف فيها هي (هن) في نهاية الكلمة ، وهي مثل القتبانية تستعمل (السين) بدل همزة التعدية التي في الفصحى (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،

ص ١٩).

الثاني: لهجات السلالات الشمالية:

لهجة ثمود:

تُنسب هذه اللهجة إلى قبيلة ثمود أو قبائل ثمود ، فهناك خلاف بين الباحثين في هذه المسألة، فبعضهم يرى أنَّ ثمود قبيلة واحدة، وبعضهم يرى أنَّ ثمود عدة قبائل، ولكن الثابت أَنَّ الثموديين كونوا جماعة لغوية واحدة ، وقد سكنت هذه القبائل المنطقة التي تمتد من شُمَّر إلى ساحل البحر، وقد وُجدت نقوشهم في منطقة مدائن صالح في شمال غرب الجزيرة العربية وفي مناطق أُخرى مثل حائل وتيماء وتبوك، وهذه النقوش بصفة عامة موجزة جداً، ويعود أقدم النقوش الثمودية إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وأحدثها إلى القرن الرابع الميلادي (حجازي ، د. ت ، ص ٢١٨) و(الزيدي ،١٩٨٧م،ص١٠٥).وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في أَكثر من موضوع ، قال تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى*وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى} (النجم: ٥٠ – ٥١(، وفي آيةٍ أُخرى ذكر القرآن أَنَّهم كانوا من المسُتبصرين، قال تعالى: { وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} (العنكبوت: ٣٨)، وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المراد بقوله تعالى: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} ، أي أَنَّهم كانوا يعيشون على عبادة الله تعالى ودين التوحيد قبل أنْ يُزين لهم الشيطان أعمالهم ويصرفهم عن سبيل الله تعالى ودين التوحيد (الطباطبائي ، ١٩٩٧م ، ١٦ / ص١٣٠)، وذهب البعض الآخر إلى أنّ المراد بقوله تعالى: {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} ، أي أنّهم كانوا مُستبصرين بواسطة الرسل، فلم يكن لهم في ذلك من عذر ، فإنّ الرسل أوضحوا السُبل لهم ، بمعنى أنّهم عرفوا الحق من الباطل بظهور البراهين ، ولكنهم كانوا مستبصرين في الضلالة معجبين بها (الرازي،٢٠١٣م،٢٥/ ص٥٩)، وهناك مؤشرات تدلُّ أَنّهم عرفوا نوعاً من التوحيد الديني. وذلك بعبادة آله يسمونه (هَأيل هأبتر) ، أي الإله الذي لم يلد ولم يولد (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٠)، والهاء في بداية اللفظتين - على ما نعتقد – هي هاء التعريف ؛ لأنَّ أداة التعريف في الثمودية هي الحرف (ه) ، ويستعملونها أيضاً في النداء ، فإذا أَراد الثمودي أنْ يقول: يا (رضو) – و (رضو) من أسماء أصنامهم – فإنّه يقول:(هَرَضَو) (اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٥٦) و (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٧٩)، وفي هذا المصطلح (هأيل هأبتر)، إشارة واضحة إلى التداخل بين الثمودية والعربية الفصحى ، وبخاصة إذا ما عدّنا إلى سورة الكوثر، قال تعالى :{ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* إِنَّ شَانِئَكَ هُوَالْأَبْتَرُ} (الكوثر: ١ – ٣(

، فقد جاء في اللسان:(والأبتر : الذي لا عَقِبَ له ، وبه فُسّر قوله تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوالْأَبْتَر} ، نزلت في العاصي بين وائل ، وكان دخل على النبي (n)- وهو جالس فقال : هذا الأبتر، أي هذا الذي لا عقب له ، فقال الله جل ثناؤه : إنَّ شانِئك يا محمد هو الأَبتر) (ابن منظور ، ٢٠٠٥م ، ٢/ ص١٤). وقد استفاضت الرويات أنّ السورة إنّما نزلت بعد ما مات ولدا الرسول (n) – القاسم وعبد الله ، والمراد بالكوثر هي كثرة ذريته- (n)– أو المراد بها الخير الكثير ، وكثرة الذرية مرادة ضمن الخير الكثير (الطباطبائي ، ١٩٩٧م ، ٢٠ / ص٤٢٩) و(الراغب الاصفهاني ، ٢٠٠٨م ، ٤٤٥) و(مغنية ، ٢٠٠٣م ، ٧/ ص٦١٦) و(الزجاج ، ٢٠٠٤ م ، ٥/ ص٢٨٤).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هناك تشابه بين لهجة ثمود والعربية الفصحى في مسائل عدة ، فالضمائر في الثمودية مشابهة للضمائر في العربية الفصحى، ونجد أيضاً اسم الإشارة (ذن) يتكرر عندهم، وهو اسم إشارة ما زال يستخدم في بعض الدول العربية؛ إذ يُقال:(هَذَني)، و(هَذَنْ)، و(ذني) ، وهم يستعملون فعل الأمر– كما هي الحال في العربية الفصحى – بكثرة عند الدعاء، وعندهم اسم الموصول (ذو) يقابل (من ، ما ، الذي ، التي) في العربية الفصحى (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٧٩) و(اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٥٧). ويبدو أنّه يلازم حالة واحدة في التذكر والتأنيث والرفع والنصب والجر ، ولا يزال هذا الشيء يوجد في عربيتنا الفصحى، وتحديداً في لهجة طيءٍ، ولذلك يسمونها (ذو الطائية)، وتكون (ذو) فيها اسم موصول بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، نقول: جاء ذو فام، ورأيتُ ذو قام، ومررتُ بذو قام ، وقد جاء ذلك في الشعر العربي القديم، قال الشاعر،(منظور بن سحيم الفقعسي) (ابن عقيل ، ١٩٨٠م ، ١/ ص ، ٤٥ ، ١٥١) و(الغلاييني ، ١٩٧٢م ، ١/ ١٣٧).

فإمّا كَرامٌ مُوسرُون لَقيتُهم فَحسِبيَ مِنْ ذو عندَهُم ما كفَانيا

أي : من الذي عندهم.

لهجة لحيان (أو للحيانبة):

لحيان دولة أو مملكة تكونت في شمال الحجاز قبل الميلاد بعدة قرون ، وقد وُجدت نقوش تُنسب إلى قبائل لحيان في منطقة العلا شمال الحجاز واسمها القديم (ددن) ، وتاريخ هذه النقوش يعود إلى ما بين القرن الرابع والثاني قبل الميلاد، والخط الذي كُتبت به هذه النقوش مشتق من المسند ويتجه من اليمين إلى الشمال، أي أنَّه على وفق سير الخط العربي الذي كُتبت به العربية الفصحى(حجازي ، دون تاريخ ، ص ٢٢٠) و(اسماعيل ، ٢٠٠٠م

، ص٥٧). ومـن خصائـص لهجة لحيـان أنَّ أداة التعريـف فيهـا هي (ه) فـي بداية الكلمة – كمـا هي الحال في الثموديـة – ولكنها لا تلتزم بذلـك ، بل تتغير بحسـب الحرف الـذي يليها، فتتحـول قبل الحروف الحلقيـة مثل (أ) أو (ع) إلـى (هن)، فإذا أراد الليحانـي أنْ يعرف كلمة (جبـل) يقول:(هجبـل) ، وإذا أراد أنْ يعـرف (عزَى) – وهو اسـم لأحـد أصنامهم – يقول : (هنغـزى) (اسـماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٥٧) و (سـعيد الغانمـي ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٢) و(عبد التواب،١٩٩٩م،ص٦٠).

لهجة الأَنباط:

النبـط مملكة قديمـة ، أَسسـوا مملكتهم في المنطقـة الشـمالية الغربيـة مـن الجزيرة، في المـكان الـذي يُعرف بـ (بطـرا) أو (بترا) ، التي يسـميها العرب (سلع) ، ويُحيط الغموض ببدايـة تاريخهـم، واسـتطاع بعـض الباحثين ترتيب ملوكهم بدءاً مـن حارثة الأول (١٦٩/ ق- م) ، وانتهـاءً بعهد رب إيل الثاني (١٠٦م) (الزيـدي ،١٩٨٧م،ص٨٧) و(سـعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٢). واختلـف الباحثـون في أصـل الأنبـاط ، فهناك من يـرى أَنّهم آرميون احتكوا بالعرب ، فإختلطـت لغتهم بلغة العرب ، ويرى القسـم الآخر مـن الباحثين أنّهم عرب خُلّـص وقبائـل بدويـة عربيـة وإنْ اسـتعملوا الآرميـة فـي كتاباتهـم بدليل أنَّ اسـماءهم هي أسـماء عربية خالصة ، فضلاً عن نشـأَتهم في أرض عربيـة (علـي ، ١٩٧٣ ، ٣/ ص١١) و(الزيدي ،١٩٨٧م،ص٨٩)، وهناك من يرى أَنّهـم مجموعة مـن القبائل العربيـة والآرامية المتحالفـة بدليـل أَنّ لغـة الكتابـة عندهـم هي الآراميـة فـي صيغتهـا الأساسـية ، ولكنها لا تخلو من صيغ الكلام العربية ، فضلاً عن كثرة اسـماء الأعلام العربية فيها ، وكلما تقدم الزمن ازدادت الألفاظ والصيـغ العربية في النبطية ((اسـماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٦٢)، ويتضـح أثر هذا التمازج البشـري على المسـتوى اللغوي ؛ إذ إنَّ لهجـة الأنباط المحكية تتميز بخاصية في غاية الأَهمية، وهي وجود (ال) التعريف – كما هـي الحال في العربية الفصحى - وبخاصة في أسـماء الأعلام مثل (أ ل ع ز ا) ، أي : العُزى ، إلى جانـب أداة التعريف الآرمية وهي الألف فـي نهاية الكلمة مثـل (ع ب د ا) ، أي : العبد (اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٦٣).

لهجة قبائل الصفا (اللجهة الصفوية):

يُطلق على القبائل العربية التي عاشـت في منطقة (الصفا) في بادية الشام وما جاورها اسم (الصفوييـن)؛ وهم مجموعة قبائل متنقلة تنتقل موسـمياً مع تغيير ظروف البيئـة، وقد وجُدت نقوشـهم في المنطقة الواقعة بيـن جبل الدروز فـي لبنـان . وتلال أرض (الصفـاة) ، ويُرجع علماء الصفويات عمـر أقدم الكتابات الصفوية

إلى القـرن الأول قبل الميلاد ، ولا يكاد يختلف الصفويون عن الثموديين من حيث اللغة إلا في اتسـاع المعجم اللغوي ، فـأداة التعريف عندهم – كمـا هي الحال فـي الثمودية – هي الهاء في بدايـة الكلمـة ، مثل : (ه ج م ل) ، أي الجمل ، واسم الموصول (ذو) ، وهو يلازم حالة واحدة في التذكير والتأنيـث والرفع والنصب والجر، كمـا هـي الحال فـي لهجة طـيء ولغـة ثمود (اسماعيل ، ٢٠٠٠م ص٦٠) و(سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٣)، وقـد لاحظ المستشـرق (ليتمان) أنّ حروفها ثمانية وعشـرون – كما هـي الحال فـي الحال في العربيـة الفصحى – ولهذا انتهـى إلى القول أنَّ كاتبيهـا كانوا عرباً (ولفنسـون ،١٩٨٠م،ص١٨٣) و(عبد التواب ،١٩٩٩م،ص٣٧).

آرامية الحَضر :

الحَضْريـة هي آراميـة مملكة الحضر التي تأسست في الشمال الغربي من وادي الرافدين، وهـي تبعد عـن مدينة آشـور القديمـة حوالي (٧٠) كليـو متراً، وتتشـكل مملكة الحضر عن مجموعـة مـن القبائل الآراميـة والعربية، وقد عُثـر في الحضر علـى (٤٠٠) نقـشٍ مكتوب باللغة الآرامية، ويعود تاريخ هذه النقوش إلى ما بين (١٠٠ ق.م – ٢٤١م)، وعلى الرغم من أنّ النقـوش الحضرية مكتوبة بالآرامية لكن ملوك الحضر يسمون أنفسهم ملوك العرب او (ملوك عربايا) (سـعيد الغانمي، ٢٠٠٩م ، ص٢٤) و (اسـماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٤٤) و(واسـتيتية ، ٢٠٠٨م ، ص٥٩٢). ولابـدَّ من الإشـارة إلى أنّه ليس للحضر لغة أو لهجة خاصة بهم ، فهي تكتب بالآرامية ، ولكن إذا صحّ هذا القول – أي التمازج العربي الآرامي – فمن البديهي أنْ يتبع ذلك تمازج لغوي بين العربية والآرامية.

اللهجة التدمرية ((أو لهجة مملكة تدمر)):

التدمريـة هـي لهجة مملكـة تدمر ، ويُطلق عليها « الآرامية التدمرية»)اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٤٣). وتدمر مملكة عربية شـهيرة ، وهي تقع اليوم على بعد (١٦٠) كيلو متراً إلى شمال الشرقي من دمشـق، ووصلت هذه المملكة إلى قمة إزدهارها التجاري فـي أثناء حكم هدريان (١١٧ – ١٣٨م)، قـام بهدمها القائد الروحاني أوربليانـوس سـنة (٢٧٤م) بعـد انتصـاره علـى ملكتها (الزباء) (اسـماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٤٣).وقـد وجُـدت النقـوش التدمرية على الصـور وجدران الهياكل القديمة ، وهي ترجع إلـى المدة الواقعة بيـن القرن الأول قبل الميلاد حتى المائة الثالثة الميلادية (الزيدي ، ١٩٨٧م، ص٨٧). ويعتقد بعـض الباحثين أنَّ التدميرين آرميـون مـن حيـث الأصل ثـم امتـزج فريق منهم بالعرب (ولفنسـون، ١٩٨٠م، ص١٢٨) و(وافـي ، ١٩٦٨م، ص٦٠)، ويـرى البعض الآخـر مـن الباحثين أنَّ أهل تدمـر كانوا عرباً

علــى الرغم مــن أنَّ كتاباتهــم بالآرامية، لأنهم يشتركون مع العرب في الأسماء والمعبودات، لكنهم اســتعملوا الآراميــة؛ لأنَّ تلك اللغة كانت لغــة الثقافة والتمدن في ذلــك العصر (الزيدي، ١٩٨٧م ، ص٨٧) و(ســعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٢٦) و(اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٤٣).

المحور الثاني: حَقْبة الحيرة التأسيسية وأثرها في تكوّن العربية الفصحى:

أولاً: حقبة الحيرة التأسيســية وتشكيل اللغة الفصحى:

الحيرة مدينة تقع في جنوب وسط العراق ، وتقع أنقاضها اليوم على مسافة سبعة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من مدينة الكوفة ، والحيرة عاصمة المنــاذرة وقاعدة ملكهم ، الذي أمتد ما بيــن (٢٦٨-٦٣٣م) ، والمنــاذرة أو اللخميون ســلالة عربيــة من قبيلــة لخم من تنــوخ ، وقد هاجروا إلى العراق واتخذوا من الحيرة عاصمة لهــم (مملكة الحيرة: Wiki hattps :// ar.m. wikip edia.org) .

ويمكــن أنْ نقول إنَّ مملكة الحيرة هي آخر حِقْبة تأسيســية عربية قبل الإســلام ، وبحســب مــا تدعي نظرية الحِقَب التأسيســية فإنّ الحيرة هي التي نشــرت العربية الفصحى بوصفها لغة ثقافيــة موحدة لــدى جميع المناطــق التي كانت خاضعــة لنفوذها فــي العراق والشــام والخليج واليمامــة والحجاز (ســعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٢٥)، أو بقول آخــر إنَّ العربية الفصحى تكونــت ونضجت – مثل ما هــي عليه اليوم – في الحيــرة، ثُم انتقلت إلى الحجاز بوصفها لغة ثقافية موحدة قبل الإسلام بما يقارب بـــ (٢٠٠) عــام ، والجدير باذكر أنَّ الدكتور جواد علي قد أشار في كتابه: (المفصل في تاريخ العرب قبل الإســلام) إلى هذا المعنى وإنْ لــم يحدد الحيرة بالاســم ، لكنه ذكر أنّه لا يســتبعد احتمال قدوم يوم قد يعثر فيه الباحثون على وثائق تبين (أن عرب العراق كانوا قد وضعوا أُسساً لقواعد العربية ... إذ لا يعقل في نظري أنْ يكون ظهور علوم عربية في العراق قبل الأمصار الإسلامية الأخــرى طفرة من غير ســابقة ولا أســاس ... وهذه الأُسس القديمة الجاهلية هي التي صيّرت العراق الموطن لهذه العلوم في الإســلام) (علي ، ١٩٧٣، ٨/ص٢٢٤) و (ســعيد الغانمــي، ٢٠٠٩م ،ص ٣١٤).

ولابدَّ من الإشــارة هنا إلى طبيعة التشــكيل السكاني لأهل الحيرة وبحسب النص الذي ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان فإنَّ أهل الحيرة ثلاثة أقســام، القسم الأول هم قبائل تنوخ ، وهم مجموعة مــن القبائل العربية يســكنون المظال وبيوت الشــعر، والقســم الثاني هم العُباد ، وهم عــرب أهــل الحيرة الحضر ، وهم قبائل شــتى ســكنوا الحيرة وتعبدوا لملوكها، والقسم الثالث الأحــلاف، وهم جماعــات مختلفة الأُصول من

الأنبـاط والآراميين والفـرس ، لحقـوا بأهل الحيرة ونزلوا فيهـا (ياقوت الحموي ، ١٩٩٥ ، ٢/ص٢٣١) و(سـعيد الغانمـي ، ٢٠٠٩م ،ص ٢٥٨-٢٥٩). وهـذا يعنـي أنَّ هناك نوعاً مـن التعدد الأثني أو القومـي فضلاً عن التعدد الثقافـي الذي يتمثل في انقسـام أهل الحيرة إلى سـكان أرياف ومدن وسـكان المظـال، وزيادة على ذلك شـهدت بيئة الحيرة تعدداً دنيناً واسعاً ، فهنـاك يهود ومجوس ومسـيحيون ومانويون وصابئـة ووثنيون (سـعيد الغانمـي ، ٢٠٠٩م ،ص ٣٨) أو بقـول آخـر إنَّ الحيرة اسـتقبلت لهجات عدة ، عربية شمالية، وعربية جنوبية ، فضلاً عن اللهجات الموجودة أصلاً مثل النبطية والآرامية، وقد تمكنت الحيرة – بحسـب مقولة هذه النظرية– من صهر هذه اللهجات في لهجة واحـدة هي عربيـة (ال) التعريـف أو العربية الفصحى، أي أنَّ سبب صعود العربية الفصحى يكمن فـي نزوح قبائل عربية مـن الحجاز إلى العراق، فضلاً عن موجة هجرة يمنية جنوبية ، وبخاصة قبيلة كنـدة التي زحفت من اليمن إلى قلب الجزيـرة العربية في مطلـع القرن الرابع الميلادي، وفـي مطلع القـرن الخامس زحفت باتجـاه العراق، وكان لها أثـر كبير في تقريب الصلاة اللغوية بين الشـمال والجنوب مما سهلَّ انتشـار لهجة جديدة هي عربية (ال) التعريف، أو العربية الفصحى، وهي لهجة - بحسب مقولة هذه النظرية – تحمل عناصر من أكثر اللهجات انتشـاراً ، وهذا هو سـر شـيوع التـرادف في العربيـة الفصحى (سـعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ، ص ٢٦٦-٢٦٧).

وإذا كانـت الحيرة قد افتقـرت إلى التوحيد الدينـي والقومي ، فإنّها حاولت سـد هذا الفراغ بنـوعٍ آخر من التوحيـد وهو التوحيـد اللغوي – وبحسـب مقولة هذه النظرية – فقد شـجعت الحيرة لهجتها الخاصة ، وهي العربية الفصحى ، بوصفهـا لغة ثقافيـة لدى جميـع القبائل التي خضعـت لنفوذهـا (وفرضتهـا علـى القبائل التـي دخلـت تحـت سـيطرتها ، وهكـذا تبنتْ قبائل العرب الشـمالية لهجـة الحيرة المعروفة باسـم العربية الفصحى، أو لغـة (ال) التعريف ، وعَمِلتْ على اسـتقدام الشـعراء من كل مكان فـي الجزيرة لتوجيـه قصادئهم لملـوك الحيرة) (سـعيد الغانمـي ، ٢٠٠٩م ،ص ٣٨)، وهذا يعنـي أنَّ هناك نوعيـن من العوامـل أدتْ إلى تشـكيل هذه اللغة الموحدة في الحيرة ، عوامل ذاتية تتعلـق بتفاعل اللغات حين تتجاور ويتأثر بعضها ببعـض ، وعوامل خارجيـة تتمثل في محاولة سـلطة الحيرة تشكيل لغة موحدة تُسهل سـيطرتها على القبائل في الجزيرة العربية وما حولها .

هذا ما انتهت إليه نظرية الحقب التأسيسـية في مسـألة تكوّن اللغة العربية الفصحى ، وهي

كما أشرنا – قد ألمح إليها د. جواد علي في كتابه (المفصل في تاريخ العربي قبل الاسلام)، وجاء بعد ذلك صاحب كتاب (ينابيع اللغة الأولى) ، الاستاذ سعيد الغانمي، وحاول إثبات ذلك من خلال الأدلة والنقوش التاريخية ، محاولاً تبديد النظرة اللاتاريخية للغة العربية التي ترى أنّ العربية الفصحى لم تخضع للتطور أبداً ، مبيناً أنّ ثمة موجات من العربيات الأخرى تركت بصمتها عليها ، وهي – أي العربية الفصحى- تُعدُّ من أحدث اللغات السامية وليس أقدمها . ولكن يبقى السؤال قائماً : كيف تكونتْ العربية الفصحى في الحيرة ، وما العوامل التي أدتْ إلى أنْ تنتقل هذه اللغة إلى الحجاز ، وقبل ذلك ما اللهجة أو اللغة التي كانت سائدة في الحيرة – باعتبار أنَّ الحيرة حاضرة عربية – قبل أنْ تتشكل الفصحى ، وما اللهجة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل أنْ تنتقل الفصحى إلى هناك؟

ثانياً: مناقشة طروحات نظرية الحِقَب:

أول ما نلاحظه على هذه النظرية أَنَها لا تأخذ بعين الإعتبار تقسيم اللغات بحسب المجموعات المعروفة في اللسانيات التاريخية الحديثة ، الذي بموجبه تنقسم مجموعة اللغات العربية على قسمين هما: مجموعة اللغات العربية الجنوبية، ومجموعة اللغات العربية الشمالية، وهذا هو التقسيم المشهور، وهو تقسيم علماء اللغة من الغربين والعرب (حجازي ، د .ت ،ص ١٨٣) و(اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٦٤) و(الصالح ،٢٠٠٩م، ص٥٠) و (استيتية ، ٢٠٠٨م ، ص٥٩٤) و(صادق ، ٢٠١٧م،ص٢٥)، وإنّما تنظر إلى هذه اللغات أو اللهجات بحسب وجودها الجغرافي اولاً ، وخط مسيرها التاريخي ثانياً، أي حركة القبائل التي كانت تنزح من الجنوب إلى الشمال وصولاً إلى العراق نتيجة الحروب أو بحثاً عن الأراضي الخصبة، ومن ثَمَّ تنتقل اللهجات من منطقة إلى أخرى وتتمازج مع غيرها، وهي تفترض – أي نظرية الحِقَب– أنَّ هذه اللغات تداخلت مع بعضها نتيجة لتداخل الناطقين بها، وحصول تأثر وتأثير بين هذه اللغات (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٢٣، ٢٦٣،٢٦٤)، ونتج عن ذلك التمازج اللغوي ظهور العربية الفصحى، فهي جمعت بين العربيات الجنوبية: (المعينية، والسبئية ، والحضرمية ، والقتبانية) ، والعربيات الشمالية البائدة :(الثمودية ، واللحيانية ، والصفوية) وأضافت لغات أُخرى هي : النبطية ، والتدمرية ، والحضرية ، وعند تدقيق النظر في هذه اللغات نجد أنَّ النبطية والتدمرية تعودان إلى مجموعة اللغات السامية الغربية الشمالية ، التي تنقسم على الكنعانية والآرامية ، والآرامية بدورها تنقسم على مجموعة شرقية ومجموعة لغات غربية

، وتنقسم الغربية على التدمرية والنبطية والسامرية ، فهاتان اللغتان هما من لهجات الآرامية وليستا من أخوات العربية أصلاً ، أما اللغة الحضرية فقد سبق أنْ أشرنا إلى أنّه ليس للحضر لهجة خاصة بهم ، فهم مجموعة من القبائل العربية والآرامية سكنوا في منطقة واحدة ، والنقوش الحضرية مكتوبة بالآرامية.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ بعض المستشرقين، وبالتحديد المستشرق ولفنسون يعترض على التقسيم المشهور،وهو تقسيم مجموعة اللغات العربية إلى لغات شمالية ولغات جنوبية، بحجة أنَّ هذا التقسيم ليس تقسيماً جغرافياً صحيحاً ولا تاريخياً دقيقاً؛ لأنّه ليستْ (هناك حدود واضحة تفصل شمال الجزيرة عن الجنوب، وتبيّن لنا من أين وإلى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبي من اللغة العربية، ومن أين وإلى أين سادت اللهجات الشمالية من العربية) (ولفنسون ، ١٩٨٠م،ص١٦٣)، وينتهي بعد ذلك إلى القول إنّه من الأفضل تقسيم مجموعة اللغات العربية إلى لهجات بائدة وباقية (ولفنسون ، ١٩٨٠م،ص١٦٤).

وعلى أية حال فإنَّ التقسيم المشهور هو تقسيم جغرافي قبل كل شيء ، فهو يقسم مجموعة اللغات العربية إلى شمالية وجنوبية بحسب وجودها الجغرافي ، ولكنه حصر هذه اللغات في الجزيرة العربية واليمن ، وهو ينظر إلى العربية الفصحى بصفتها إحدى هذه اللغات ، في حين أن نظرية الحِقَب التأسيسية هي الأُخرى اعتمدت التقسيم الجغرافي لكنّها ترى أنّ العربية الفصحى تكونت بسبب تمازج هذه اللغات ، العربية الشمالية والعربية الجونبية مع بعضها ، ومع النبطية والتدمرية والصفويّة ، ووسعتْ دائرة تواجد هذه اللغات لتشمل فضلاً عن الجزيرة العربية واليمن العراق وسوريا والإردن ولبنان.

إنَّ مسألة الجمع بين اللغات العربية الشمالية واللغات العربية والجنوبية وجعلها جميعاً من من روافد العربية الفصحى ، أو بقول آخر إنَّ العربية الفصحى تكونت نتيجة ما انتهت إليه هذه اللغات في مسيرتها التاريخية وتمازجها اللغوي هي ليست مسألة جديدة تماماً ، ويمكن لنا أنْ نقول إنَّ هناك فريقين من الباحثين ، الفريق الأول رفض رفضاً قاطعاً أنْ تكون هذه اللغات – أي العربيات الجنوبية والشمالية – صورة للعربية الاولى ، أو صورة للمرحلة التي سبقت اللغة الفصحى المتمثلة في لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلي ، وفي هذا المعنى يؤكد الدكتور إبراهيم السامرائي أنَّ البحث التنقيبي الذي قام به علماء اللغة الأوربيون وغير الأوربين في شبه الجزيرة العربية وفي اليمن (وإهتداؤهم إلى حلّ الرموز كما في المعينية والسبئية والنقوش اللحانية والثمودية ، فلا يمكن

اعتباره مشيراً إلى الحلقات الإولى المفقودة في العربيــة ، والتي ســبقت الأدب الجاهلي، وذلك أنَّ بينها وبين النصــوص الجاهلية فرقاً عظيماً ، فهـذه المواد اللغوية التي دلــت عليها النقوش المكتشــفة تؤلف لهجات أو لغات ســامية تقرب من العربية المعروفة) (الســامرائي ، ١٩٨٧م ، ص١٧١) و (أنيس ، ٢٠٠٣، ص ٣١-٣٢). ويكرر هذا القول في موضعٍ آخر ، ونراه يؤكد أنّــه لا يمكن لنا أنْ نبحث عن تاريخ العربية في اللغات العربيــة الجنوبية، كالمعينية والحميرية والسبئية ، ولا حتى في اللغات العربية الشمالية كاللحيانيــة أو الثمودية أو الصفوية أو النبطية ؛ لأنّه إذا كانت لهجات العربية الفصحى – يقصد لهجــة تميم أو قريــش أو هــوازن أو طيء -لا تعطينا إلا صورة شــوهاء غيــر كاملة لمرحلة لغوية مــن تاريخ العربية ، فليــس من المعقول اتخــاذ اللغــات العربيــة الشــمالية أو الجنوبية (صورة للعربية الأولى أو صورة للمرحلة التي ســبقت الفصيحة المعروفة في لغة القرن الأول الهجــري) (الســامرائي ، ١٩٨١م ، ص٧٠). وهــذا القــول له ما يبــرره من الناحيــة العلمية بســبب الاختلافــات الواضحة بين هــذه اللغات والعربيــة الفصحــى ، ومن جملــة الاختلافات بين العربيــات الجنوبية والفصحــى أنَّ ضمير الغائــب في المعينية (ســين) ، وهو بهذا يقرب مــن البابلية التي فيها هذا الضمير (شــين)، في حيــن نجد أنَّ ضمير الغائب في الســبئية (ها) ، وكذلك نجد وزن (أفعــل) في العربية الفصحى يقابله (سفعل) في المعينية و(فَعْل) في السبئية (اســماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٦٨). أما العربيات الشمالية فعلى الرغم من أنَّ بعض المستشرقين (عبد التواب ، ١٩٩٩م ، ص٥٠) و (الزيدي ، ١٩٨٧م ، ص١٠٤) يطلق عليها اسم « العربية الأُولى» أو « العربية القديمة» ، إلا إنَّ النقوش والآثار التي وصلت إلينا من هذه اللغات تتســم بالغموض في كثير من ألفاظها واصطلاحاتها، وهــي قليلة الأهميــة، نزرة المــادة ، ولا يمكن اعتبارهــا مادة تمثــل طفولة العربيــة (ونظراً لأمتزاجها بشيء من خصائص اللغات الأُخرى الشائعة في العراق والشام كالآرامية ، فقد ذهب بعــض الباحثين إلى عدّها لغات ليســت خالصة العربية) (الزيــدي ، ١٩٨٧م ، ص١١٢) و (ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٢) و(السامرائي ، ١٩٨١م ، ص٧٠) وفضلاً عن ذلك فهي تُكتب من الشمال إلى اليمين ، وهي خالية من حروف المــد واللين (الألف والــواو واليــاء)، فكلمة (أَنــا) تُكتب هكذا (أَن)، وكلمة (زيد) تكتب هكذا (زد)، و(ســاعد) تُكتب (ســعد) (عبد التواب ، ١٩٩٩م ، ص٥١).

وهناك أيضاً اختلافات في مسائل ضرورية بيــن هذه اللغات أو بينها وبين العربية الفصحى ، وعلى سبيل المثال الاختلاف في أداة التعريف

، فهي في العربية الفصحى (ال) في بداية الكلمة ، ومقابل ذلك نجد أنَّ أداة التعريف في السبئية هي حرف النون يُضاف إلى آخر الكلمة (عبد التواب ، ١٩٩٧م ، ص٢٤٢) و (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م،ص١٨)، وفي الحضرمية نجد أنَّ أداة التعريف هي (هن) في نهاية الكلمة (اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٦٩)، وفي الثمودية واللحيانية والصفوية فإن أداة التعريف هي (ه) في بداية الكلمة (اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٦٠، ٥٧، ٥٦).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ علماء اللغات السامية يرجحون أنَّ الأصل في أداة التعريف في اللغات السامية هي (الهاء واللام) في بداية الكلمة ، غير أنَّ هذا الأصل لم تحتفظ به أية لغة من اللغات السامية (عبد التواب ، ١٩٩٧م ، ص٢٤٢)، والذين ذهبوا إلى هذا الرأي قالوا إنَّ الأف حلّت محل الهاء في العربية الفصحى (كما أنَّ اللام تدغم في العربية الفصحى فيما بعدها إذا كان حرفاً من الحروف الشمسية) (السامرائي ، ١٩٨٧م ، ص١٥٠)، أو بمعنى آخر أنَّ أصل أداة التعريف في الفصحى هي (هل) التي تطورت بمرور الوقت إلى (ال) التعريف.

وفي هذه المسألة – أي مسألة أداة التعريف – يطرح صاحب نظرية الحِقَب التأسيسية قولاً آخر يفسر فيه كيفية دخول (ال) التعريف إلى العربية الفصحى، وهو أنَّ (ال) التعريف كانت من خصائص لهجة الأنباط المحكية (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٢٦٣)، أو بقول آخر إنَّ الأنباط كانوا يستعملون في نقوشهم المكتوبة بالآرامية علامة التعريف الآرامية ، وهي الألف في نهاية الكلمة ، ولكنهم في لهجتهم المحكية يستعملون لدلالة على التعريف (ال) كما هي الحال في العربية الفصحى ؛ وذلك اعتماداً على نقش نبطي عُثر عليه عام ١٩٧٩م في صحراء النقب، ويعود تاريخه الى نهاية القرن الأول الميلادي (٨٦ م) ، وفي هذا النقش يجمع الكاتب بين الآرامية وعربية الأنباط المحكية، وقد استعمل الكاتب في السطر الأول علامة التعريف الآرامية ، وهي الأف في نهاية الكلمة، واستعمل في السطر الرابع أداة التعريف (ال) كما هي الحال في العربية الفصحى (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م،ص ١٨٧)، وبحسب مقولة نظرية الحقب فقد انتقلت (ال) التعريف من لهجة الأنباط المحكية إلى اللهجة اللحيانية بسبب التداخل التاريخي والثقافي واللهجي بين الشعبين ، فمن الناحية التاريخية نحن نعلم أنَّ الأنباط قضوا على دولة لحيان واخضعوهم لحكمهم وذلك سنة (٢٤م) (علي ، ١٩٧٣م ،٢ / ص ١٩٨، ٢٠٠)وأحدثوا فيهم تأثيرات ثقافية ولهجية ودينية ، وبحسب ما يذكر د. جواد علي أنَّ اللحيانيين كانوا آخر

موجة عربية دخلت العراق قبل الإسلام (علي ، ١٩٧٣م ، ٢/ص٢٠٠) و(سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص١٦٥)، وقد نقلوا معهم (ال) التعريف إلى العراق ، ومن ثَّم دخلت (ال) التعريف إلى العربية الفصحى في حقبة الحيرة التأسيسية . ويبدو لنا هذا التفسير عن كيفية دخول (ال) التعريف الى العربية الفصحى مقبولاً من الناحية التاريخية والمنطقية في ضوء التأثير والتأثير بين اللغات ؛ ولكن لابدَّ لنا من الإشارة الى نقطتين في هذه المسألة:

الأولى: إنَّ النبط كتبوا نقوشهم بالآرامية وإنْ كانت لغتهم عربية (ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٣٨،١٣ (و)الزيدي ، ١٩٨٧م،ص٨٩)، لأنَّ اللغة الآرامية كانت هي اللغة الثقافية السائدة آنذاك ، أو بقول آخر أنَّ لغة الأنباط المحكية هي مزيج من العربية والآرامية ، وكان هذا المزيج مفهوماً عند العرب فأطلقوا عليه (الرطانة النبطية) (ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٧٣)، فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو لماذا لا تكون (ال) التعريف هذه هي عربية أصلاً وبخاصة نحن نعرف أنَّ الآرامية لها أداة تعريف خاصة بها وهي الألف في نهاية الكلمة ؟ ونحن نعتقد إنَّ هذا الاحتمال قائم لكننا لا نستطيع الإجابة عليه بشكل قاطع ؛ لأن المواد الضرورية التي تخص العربية الفصحى لم تتوفر لنا لمعرفة المرحلة التي سبقت العصر الجاهلي (ذلك أنّنا مفتقرون للنصوص الثابتة المدونة كما في سائر اللغات الحية) (السامرائي، ١٩٨٧م ، ص٥٠).

الثانية: إنَّ هذا القول لا يختلف – من حيث النتيجة – عن القول الذي يرجحه علماء الساميات ، وهو أنَّ (ال) التعريف في العربية الفصحى متطورة عن (الهاء واللام) ، لأننّا نعرف أنَّ من خصائص لهجة لحيان أنَّ أداة التعريف فيها هي (ه) في بداية الكلمة ، لكنها تتغير بحسب الحرف الذي يليها ، فتتحول قبل الحروف الحلقية مثل (أ) أو (ع) إلى (هن((اسماعيل ، ٢٠٠٠م ، ص٥٧) و(عبد التواب ، ١٩٩٩م ، ص٦٠ ، وص١٧)، وبحسب قول صاحب نظرية الحقب ورد لديهم في بعض الصيغ (هل) للتعريف بدل (هن) ، ولكنني لم أجد أحداً من علماء الساميات من أشار إلى أنَّ (هل) تستعمل للتعرف عند للحيانيين.

وعلى أية حال فنحن لا ننكر أنَّ هناك تأثراً وتأثيراً بين اللغات السامية لقوة القرابة بين فروعها ووحدة مجالها الجغرافي ، فهي أكثر تماسكاً من مجموعة اللغات الهندية الأُوربية الموزعة على مساحات جغرافية واسعة ومنفصلة عن بعضها ، وعلينا أنْ نفهم أنَّ هذه الفروقات والإختلافات بين هذه اللغات ، أي بين العربية الفصحى وأخواتها الساميات لم تكن مثل ما تبدو لنا اليوم ؛ لأنَّ هذه اللغات تعود إلى

أصل واحد، وهنَّ متقاربات من حيث الإشتقاق والتصريف واللفظ ، وهذه الفروق الظاهرة التي تبدو لنا اليوم بين هذه اللغات تعود إلى تراكمات الفـروق الزمنية الطويلة حيـث أخذت كل لغة تشـق طريقها بمعزل عن أخواتها، ودليلنا على ذلك ما ذهب إليه أبو إبراهيم اسـحاق بن بارون – عاش في القرن الحادي عشر الميلادي – في كتابه :(الموازنـة بين العبرية والعربية)، حيث أعطى حكماً عاماً على اللغات العربية والعبرية والسـريانية بقوله:(نرى اليـوم اللغة العبرانية والعربيـة والسـريانية متقاربـات الإشـتقاق والتصريـف واللفظ لقرب مـزاج أهلها لقربهم فـي الإقليم ...) (عمـر ، ١٩٧٦م ، ص٢٢٦)، وكذلـك أدرك ابن حزم الأندلسـي (ت ٤٥٦ه) علاقة القربى بين العربية والعبرية والسـريانية ، وصـرح بأنَّ هـذه اللغات لغة واحـدة تبدلتْ بتبدل مسـاكن أهلها ، ومن تدبّـر فيها (أيقن أنَّ اختلافهـا إنّما هـو من نحو ما ذكرنـا من تبدل ألفـاظ الناس طـول الزمان واختـلاف البلدان) (ابـن حـزم الأندلسـي ، د. ت ، ١/ ص ٣٠) و(عبـد التـواب ، ١٩٩٩م ، ص٤٤)،أو بقول آخـر أنَّ هـذه اللغات كانت عبـارة عن لهجات للغة واحدة تماماً مثـل اللهجة العراقية واللهجة المصرية اليـوم، وحتى إذا افترضنا صحة هذا القول – أي أنّ (ال) التعريف انتقلت من النبطية المحكيـة إلى العربيـة الفصحى – فهذا لا يعني أبداً أنَّ العربية الفصحى تكونت نتيجة التقاء هذه اللغات مع بعضها في الحيرة ؛ لأنَّ هذه المقولة توحـي بوجـود عناصر متباينة أو متشـابهة ثُم تمازجت مع بعضها لتكوين شيء جديد، (وهذه الفكـرة غير منطقيـة ولا تنطبق على الفصحى التي لها مسـيرتها اللغويـة المتميزة (مجموعة مـن الباحثيـن ، ٢٠٠٦م، ص٥٤)، وتاريـخ طويـل يتجـاوز عصر الحيرة بقـرون كثيرة ، والصحيح أنّه مثلما هنـاك فروقات واختلافات بين مجموعة اللغات السـامية هناك أيضاً أوجه شبه كثيرة بحكم الانتماء إلى أصل لغوي واحد.

وهنـاك قسـم آخر مـن الباحثيـن (الفريق الثانـي) يتفق مع طروحـات نظرية الحقب في أنّ العربيـة الفصحـى هـي مزيج مـن اللغات العربيـة الجنوبيـة واللغات العربية الشـمالية ، وقد ذكرنا في ما سـبق أنَّ المستشرق ولفنسون يرفض التقسيم الشائع لمجموعة اللغات العربية إلى لغات عربية جنوبية ولغات عربية شـمالية ، وهـو يـرى أنّه مـن الأصوب تقسـيمها على لغـات بائدة ولغات باقية (ولفنسـون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٤)، والبائـدة هـي الثمودية واللحيانية والصفوية ، والباقية هي اللغات الجنوبية الأربع والعربية الفصحى ، ويعتقد ولفنسون أيضاً أنّ العربيـة الفصحى هي مزيج من لهجات مختلفة (بعضها من شـمال الجزيـرة ، وهو الأغلب ، وبعضها من جنوب البلاد اختلطت كلها بعضها

ببعـض حتى صارت لغة واحدة) (ولفنسـون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٦). وقد أشار ولفنسون أيضاً إلى أثر اللغات السـامية الموجـودة في العراق وسـوريا كالآراميـة والعبريـة فـي اللهجـات العربية الشـمالية ، وذلك بسبب اتصال العرب الراحلة بأُمم سـوريا والعراق من أقدم الأزمنة ، وكان مـن نتائج هـذا الاتصال تبـادل علمي وأدبي. (ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٢).

بقيَّ أنْ نشـير إلى أنَّ مسألَة شيوع الترادف في العربية الفصحى التي أشـارت إليها نظرية الحقـب التأسيسـية ورأت أنّهـا جاءت بسـبب أنَّ العربيـة الفصحى قـد تكونت نتيجـة إلتقاء مجموعة هذه اللغات في الحيرة (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٣٨)، هـي الأُخـرى ذكرهـا ولفنسون وعلل وجودها في العربية الفصحى ، لأنَّ هذه اللغة – بحسب ما يعتقد – هي مزيج من لهجات عربية شـمالية وعربيـة جنوبية مختلفة امتزجت حتى صارت لغة واحدة (ولفنسـون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٦).

يتضـح لنـا بجـلاء التشـابه والاتفـاق بين آراء ولفنسـون ، ومـا تطرحه نظريـة الحِقَب التأسيسـية في شـأن تكوّن اللغـة الفصحى في أنّهـا تكونـت نتيجة التقـاء العربيـات الجنوبية والعربيات الشـمالية مع اللغـات الموجودة في العـراق والشـام، ولعل الاختـلاف الأبرز هو أنَّ هذه النظرية قـد حددت المكان الذي تكوّنت فيه الفصحى هو مملكـة الحيرة في العراق،في حين أنَّ ولفنسـون لم يحدد المـكان، ولكن يُفهم مـن كلامـه أنّ الجزيـرة العربيـة أو موطـن اللغات العربية الشمالية هو المكان الذي تكوّنت فيه اللغـة العربيـة الفصحى،(فاللهجـات التي أصبحت سائدة في أغلب أقاليم الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسـلام إنّما هي الشـمالية بعد أنْ التهمت أَكثر اللهجـات الجنوبية وتغذت عليها) (ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٧). وزيادة على ذلك تنبّه ولفنسـون إلـى عامل الزمن وأثره في تكـوّن اللغة ، فعملية ظهور لغـة جديدة تحتاج إلى مدة زمنية طويلة قد تستغرق مئات الأعوام ، وفيمـا يتعلق بظهـور الفصحى فـإنَّ امتزاج اللهجـات أو اللغات وتداخلها بعضها في بعض لـم يتمّ (مرة واحدة وفي زمن واحد ، بل حدث شـيئاً فشيئاً .... وهكذا ظل هذا التدرج ينتقل في أزمنة طويلة أثناء الجاهلية حتى ظهور الإسلام) (ولفنسـون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٧)، وعلـى الرغم من أنّ ولفنسون يؤكد أنَّ عملية تكون لغة جديدة تحتاج إلى مئات الأعوام أو أزمنة طويلة لكنـه لم يحـدد بالضبـط زمن ظهـور العربية الفصحى أو المدة الزمنية التي استغرقتها عملية التكويـن ، ومقابـل ذلك نجـد أنَّ نظرية الحقب التأسيسـية ترى أنَّ ظهور الفصحى في الحيرة كان فـي نهاية القرن الثالـث الميلادي أو بداية القرن الرابع (سـعيد الغانمـي ، ٢٠٠٩م ،ص

٢٦٥)، وإذا كانت مملكة الحيرة إمتدت من حيث الزمن ما بين (٢٦٨-٦٣٣م) ، وإنَّ العربية الفصحى كانت موجودة في الجزيرة العربية في حدود (٢٠٠) سنة قبل ظهور الإسلام أي سنة (٦١٠م) ، وذلك بحسب مقولة الجاحظ (٢٥٥ه) الشهيرة : (وإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أنْ جاء الله تعالى بالاسلام - خمسين ومئة عام ، وإذا استظهرناه بغاية الاستظهار فمئتي عام) (الجاحظ ، دون تاريخ ، ١/ص٧٤)، أو بقول آخر إنَّ العربية الفصحى كانت موجودة في الجزيرة العربية بحدود سنة (٤١٠م) وهي في حالة نضج تام في مستوياتها كافة ، النحوية والصرفية والصوتية والدلالية ، وهذا يعني أنَّ العربية الفصحى تكونت ونضجت ثُم انتشرت في زمن قياسي ، أي ما بين (٢٦٨م-٤١٠م) ، وهذه المدة الزمنية على وفق معايير اللسانيات المعاصرة لا تكفي لظهور لغة جديدة فضلاً عن كونها مثل العربية الفصحى – كما هي الحال في الشعر الجاهلي – تمثل قمة النضج في مستوياتها كافة ، وهذا النضج الذي انتهت إليه العربية الفصحى وليد مرحلة طويلة ، تاريخها يتجاوز عصر الحيرة بقرون كثيرة ، وهناك قسم من الباحثين يرى أنّ بروز الفصحى يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وأنَّ اكتمالها اللغوي قد استغرق الألف الأول قبل الميلاد (مجموعة من الباحثين ، ٢٠٠٦م، ص٣٣).

وهناك مسألة في غاية الأَهمية تجدر الإشارة إليها ، وهي مسأَلة اللغة التي كانت سائدة في الحيرة قبل أنْ تتشكل الفصحى ، وإذا افترضنا جدلاً صحة هذه النظرية فيحق لنا أنْ نتساءَل عن اللغة التي كانت سائدة في الحيرة قبل أنْ تتشكل الفصحى ؛ وذلك لأنَّ اللغات المشتركة أو الأدبية – بحسب رأي فندريس – تقوم دائماً على أساس لغة موجودة (حيث تُتخذ هذه اللغة الموجودة لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفي التكلم ، وتفسر الظروف التاريخية تغلب هذه اللغة التي أُتخذت أساساً وتعلل انتشارها في جميع مناطق التكلم المحلي المختلفة) (فندريس ، ٢٠١٤م ، ص٢٢٨)، ونلحظ هنا أنَّ نظرية الحقب لم تقدم إجابة صريحة في هذه المسأَلة ، علماً أنَّ مسأَلة تحديد اللغة أو اللهجة التي انبثقت عنها العربية الفصحى يكتنفها الغموض ، وهي ليست جديدة أيضاً، وقد حاول اللغويون العرب والمستشرقون معرفة ذلك وقدموا آراء كثيرة ، فقد ذهب (نلينو) إلى أنَّ العربية ولدت من إحدى اللهجات النجدية وتهذبت في مملكة كندة (مجموعة من الباحثين ، ٢٠٠٦م، ص٥٢) و (عبد التواب ، ١٩٩٩م ، ص٧٦)، وقريب من هذا رأي (رابين) ، وهو إنَّ العربية الكلاسيكية قد قامت على أساس واحدة أو أكثر من لهجات نجد (مجموعة من الباحثين

، ٢٠٠٦م، ص٥٢)، ويرى (جويدي) أنَّ العربية الفصحى خليط من لهجات نجد والمناطق المجاورة ولا تمثل لهجة بعينها (عبد التواب ، ١٩٩٩م ، ص٧٦)، وذهب بروكلمان إلى أنَّ العربية الفصحى بصورتها التي نعرفها لم تكن لغة كلام أبداً لكنه لم يناقش علاقتها باللهجات (عبد التواب ، ١٩٩٩م ، ص٧٦)، ويرى تمام حسان أنَّ العربية الفصحى لا تمثل لغة قبيلة بعينها (وتقبلت في نموها عناصر من جميع اللهجات حتى بدت قريبة إلى كل لهجة) (حسان ، ١٩٩٢م، ص٦٤). وهذه الأقوال جميعها هي مجرد آراء لا تستند إلى دليل علمي قاطع أو حجة تاريخية مقنعة ، فنحن لا نملك شيئاً ذا بال عن طفولة العربية الفصحى ؛ وذلك بسبب نقص معلوماتنا عن تلك المرحلة . وعلى الرغم من أنَّ نظرية الحقب لم تحدد اللهجة التي انبثقت منها اللغة الفصحى لكنها في الوقت نفسه لم تبتعد كثيراً عن المقولات السابقة ، وهي تتفق مع مقولة المستشرق (جويدي) وتمام حسان في أنَّ العربية الفصحى خليط من لهجات عدة ولا تمثل لهجة بعينها ، وهي قد تقبلت في نموها عناصر من لهجات مختلفة (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٢٦٧). وهذه الفكرة – أي أنَّ العربية خليط من لهجات عدة – غير منطقية ولا تنطبق على العربية الفصحى التي لها مسيرتها اللغوية المتميزة فضلاً عن (أنّها تشتمل على عناصر قديمة جداً من اللغات السامية الأَصيلة) (ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٨)، ففيها من الأصوات ما ليس في غيرها من اللغات السامية ، وفيها ظاهرة الإعراب ونظامه الكامل، وفيها صيغ كثيرة لجموع التكسير (أنيس ، ٢٠٠٣م،ص٣١).

بقيَّ أنْ نشير إلى نقطة مهمة ذكرها صاحب نظرية الحِقَب التأسيسية وهي قوله إنّ سلطة الحيرة:(شجعت لهجتها الخاصة وفرضتها على القبائل التي دخلت تحت سيطرتها، وهكذا تبنتْ قبائل العرب الشمالية لهجة الحيرة المعروفة باسم اللغة العربية الفصحى، لغة (أل) التعريف، وعملت على استقدام الشعراء العرب من كل مكان في الجزيرة...) (سعيد الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٣٨). وهنا نكرر ما قلناه سابقاً إنَّ تاريخ اللغات والدرس اللغوي المعاصر يؤكدان أنَّ التغاير اللغوي مهماً كان بسيطاً لا يكون اختباراً (مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٣٥٢)، أو بمعنى آخر أنَّ اللغة تتشكل ولا تُفرض، (فاللغة عند الناس تمارس ولا توعى، فالوعي بها لغة شارحة، أي لغة على لغة، وهو ما يفعله دارسو اللغة لا الناطقون بها) (مهدي الغانمي ، ٢٠٠٩م ،ص ٣٥٢)، ومن الصعوبة بمكان أنْ تجبر أَحداً ما أو مجتمعاً بأكمله على

ترك لغته والتحدث بلغة أخرى حتى وإنْ كانت السلطة الحاكمة تريد فرض ذلك فرضاً، يقول فندريس:(الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائماً إلى المحافظة عليها كما هي) (فندريس ، ٢٠١٤م ، ص٢١٦)، فضلاً عن أنّه لا يوجد دليل تاريخي مقنع أنَّ الحيرة فرضت سيطرتها الكاملة على الجزيرة العربية.

ومن هنا يتضح لنا ضعف مقولة نظرية الحقب التأسيسية في تكوّن اللغة العربية الفصحى؛ ذلك أنَّ النضج اللغوي الذي عليه العربية الفصحى– كما هي الحال في الشعر الجاهلي– وليد مرحلة طويلة، أو قل إنّها لغة عالية قطعت مراحل طويلة حتى انتهت إلى هذا الشكل من الكمال اللغوي، وقد أدركت العربية الجاهلية مستوى عالياً من حيث الأُسلوب واشتملت على (صيغ ومبان هي من الاتقان والإحكام بحيث تهيّأ منها أنْ تكون للعرب موازين وأقسية في الشعر هي الغاية في الضبط والتدقيق من حيث الناحية الموسيقية) (السامرائي ، ١٩٧٨م ، ص١٤٥)،حتى إنَّ كثيراً من الباحثين يصف العربية بأنّها لغة موسيقية (وأنّها انحدرت إلينا وقد اكتسبت هذه الصفة منذ أقدم نصوصها) (أنيس ، ١٩٦٣م، ص١٩٥). ويطرح أحد الباحثين سؤالاً عن العربية هكذا : أهي أقدم صورة للساميات ، أو هي أرقى صورة ؟ ثُم يجيب عن هذا التساؤل بقوله : (فالعربية هي أقدم صورة ، والعربية الفصحى هي أرقى صورة) (الطعان ، ١٩٧٨م، ص١٣٧)،وهذا هو معنى قول ولفنسون من ان العربية تشتمل على عناصر قديمة جداً من اللغات السامية الأصلية، وفي الوقت نفسه نجد فيها صيغاً (مرت عليها تقلبات كثيرة وتغيّرات شتّى)(ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٦٨)، فالعربية الفصحى لم تنشأ ولم تلد من فراغ ، إنّما هي حصيلة طويلة من التجارب والمخاضات الفكرية واللغوية ، أو بقول آخر إنَّ العربية المتمثلة في لغة التنزيل الكريم والشعر الجاهلي ربما لا يتجاوز عمرها (٢٠٠) عام قبل الإسلام – بحسب مقولة الجاحظ – ولكنها لغة عالية مرتْ عليها مراحل طويلة حتى انتهت على هذا الشكل من الكمال اللغوي ، وهي متطورة عن أَصل قديم موغل في القدم وليس خليطاً من لغات شتّى ، وقد حاول الباحثون على اختلاف توجهاتهم معرفة الأصل الذي تطورت عنه الفصحى واطوار تكونها والمكان الذي نما فيه هذا الأصل ، وذلك من خلال الدراسات اللغوية المقارنة بين العربية واخواتها الساميات ، أو من خلال مقارنة العربية بالعربيات الشمالية والجنوبية، أو من خلال دراسة نقوش شمالية قديمة أُطلق عليها (نقوش العربية الأولى)

(ولفنسون ، ١٩٨٠م ، ص١٨٩) و(عبد التواب ، ١٩٩٩م ، ص٥٠)عُـدتْ الأقرب إلى العربية الفصحـى ، ولكـن كل هذه المحـاولات لم تنته إلى شـيْ ذي بال ، وبقيت مجرد أقوال لا تستند إلـى رأي علمي مقنع أو حجـة علمية قاطعة ، وذلـك لأننّا نفتقر إلى الحلقات الأولى من تاريخ العربية الفصحى ، ولا نعرف شيئاً عن طفولتها بحيـث نقيم على أساسـه بنـاءً يظهـر التاريخ اللغـوي العام لهـذه اللغة،(ونحـن نفترض أنْ يكـون في اللغة العربيـة نصوص قد ضاعت ، أو أننّا لم نعثر عليها، ولم يحدث للغة العربية ما حدث للغات السامية الأخرى ، فالتنقيب العلمي الحديـث دلّ على مواد كثيرة في اللغات الأكدية والآشورية والعبرية والآرامية والحبشية أفادت البحث اللغـوي كثيراً ، ودلت على اماكن القيام بوضـع تاريخ محكم الحلقات فـي هذه اللغات) (السـامرائي ، ١٩٨٧م ، ص١٧٠) و (أنيس ، ٢٠٠٣م، ص ٣١-٣٢)، وإلى هذا المعنى ذهب أحمد فارس (ت ٣٩٥ه) في كتابه»الصاحبي»، وأكـد (أنّ الذي جاءنا من العرب قليل من كثير ، وأنّ كثيـراً من الكلام ذهب بذهاب أهله) (ابن فارس ، ٢٠٠٥م ، ص٦٣)، وهناك رأي لأحد المستشـرقين يدعـى (فيشـر Fischer) يقول فيـه : (إنَّ العربية الفصحـى كانت في الأصل لهجـة قديمـة معينـة) (مجموعة مـن الباحثين ، ٢٠٠٦م، ص٥٢)، وعلـى الرغـم مـن أنَّ (فيشـر) لم يحـدد هذه اللهجة ولـم ينص على موطنهـا ، ولكن تكمن أهميـة هذا القول في أنّه يـرى العربية قديمـة وأنّها كانـت لهجة بعينها وليسـت خليطاً من لغات أو لهجات مختلفة كما يرى بعضهـم ، وهي أيضاً موغلـة في القدم ، ولعلهـا من حيث القدم تضـارع الأكدية أو هي أقـدم منهـا ، ولذلك فإنَّ كثيراً مـن الباحثين في اللغات السـامية يعتقدون أنَّ وجـود أية ظاهرة لغويـة في الأكدية والعربية دليل على كون هذه الظاهرة موروثة عـن اللغة الأُم) حجازي / د. ت، ص١٥٦).

خاتمة البحث ونتائجه:

يمكننـي فـي ضوء مـا تقـدم أنْ أوجز أهم النتائج التي توصل إليها البحث:

١.على الرغم من أنَّ القول بمبدأ اللغة المشتركة أو (نظريـة اللغة المشـتركة) فـي تكوّن اللغة العربيـة الفصحـى كان لغايـة الثمانينيات من القرن الماضي من المسـلمات المتفق عليها في الدراسات اللغوية العربية ، إلا إنَّ هذه النظرية أصبحت فـي الوقت الحاضر غير مقنعة لكثير من الباحثين العرب أو المستشرقين، وذلك لأننا لا نمتلك معلومـات كافية عن اللهجات العربية القديمة بسـبب اهتمام اللغويين القدماء بدراسة الفصحى ، وبالمقابل إهمالهم للهجات القبلية إلا في حدود ضيقة.

٢. أثبت البحث أنَّ نظرية العود الإلهي أو (نظرية لغة قريش) ، هي مجرد فروض وتخمينات لا تصمد أمام البحث العلمي ، فهذه النظرية تفترض أنَّ العربية الفصحى بقيت نقية عند قريش ولم تتأثر بما حولها ، وهذا أمر يصعب تحقيقه على أرض الواقع، وزيادة على ذلك فإنَّ هذه النظرية تنظر إلى اللجات القبلية الأخرى بصفتها انحرافات عن اللغة الفصحى وليس لهجات موازية لها ، وهذه من المؤاخذات المهمة على هذه النظرية ؛ لأنَّ هذه اللهجات قد جاءت في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف.

٣. أثبت البحث أنّ هناك اختلافات واضحة بين العربية الفصحى والعربيات الأُخرى في مسائل عدة منها:

أ- استعمال الحرف (سين) في المعينية والقتبانية بدل همزة التعدية في العربية الفصحى .

ب - استعمال هاء التعدية (هفعل) في السبئية بدل همزة التعدية في العربية.

ج- الاختلاف في أداة التعريف ، فهي في العربية الفصحى (ال) في بداية الكلمة ، وفي السبئية هي (حرف النون) يُضاف إلى آخر الكلمة ، وفي الحضرمية هي (هن) في نهاية الكلمة ، وفي الثمودية واللحيانية والصفوية هي (هـ) في بداية الكلمة.

٤. أثبتت البحث أيضاً وجود نقاط اتفاق وتشابه بين العربية الفصحى والعربيات الأُخرى في بعض المسائل منها:-

أ- الضمائر في الثمودية مشابهة للضمائر في العربية الفصحى ، فضلاً عن أنّ اسم الموصول (ذو) في الثمودية يقابل (من ، ما ، الذي ، التي) في العربية الفصحى ، وهو يلازم حالة واحدة في التذكير والتأنيث والرفع والنصب والجر ، ولا يزال هذا الاستعمال ، يوجد في عربيتنا الفصحى ، وتحديداً في لهجة طيّ ولذلك يسمونها (ذو الطائية).

ب - تتميز لهجة الانباط المحكية بخاصية غاية الأَهمية وهي وجود (ال) التعريف – كما هي الحال في العربية الفصحى – وبخاصة في أسماء الأعلام إلى جانب أداة التعريف الآرامية وهي الألف في نهاية الكلمة.

٥- أثبت البحث أنَّ مسألة الجمع بين اللغات العربية الشمالية واللغات العربية الجنوبية وجعلها جميعاً من روافد العربية الفصحى – بحسب مقولة نظرية الحقب– هي مسألة ليست جديدة تماماً، وهناك فريقان من الباحثين، الأول رفض رفضاً قاطعاً أنْ تكون هذه اللغات – أي العربيات الشمالية والجنوبية – صورة للعربية الأولى أو صورة للمرحلة التي سبقت اللغة الفصحى المتمثلة في لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلي؛ وذلك لأنَّ بينها وبين النصوص الجاهلية فرقاً كبيراً واختلافات كثيرة ، وهو قول له ما يبرره من الناحية العلمية . وهناك قسم من الباحثين (الفريق الثاني) يتفق مع

طروحـات نظريـة الحقـب فـي أنَّ العربيـة الفصحى هي مزيج من اللغات العربية الشمالية واللغـات العربيـة الجنوبيـة ولغـات أخـرى كالنبطية والتدمرية.

٦- أثبـت البحـث أنَّ مقولـة نظريـة الحقـب التأسيسـية فـي أنَّ العربية الفصحـى خليط من لهجـات أو لغات عدة ، ولا تمثل لهجة بعينها ، غير منطقيـة ولا تنطبق على العربية الفصحى التي لها مسـيرتها اللغوية المتميزة ، فضلاً عن أنّها تشـتمل على عناصر قديمة جداً من اللغات السامية الأصلية .

٧- أثبـت البحث وجود تشـابه واتفاق بين آراء المستشرق ولفنسون وما تطرحه نظرية الحقب في شـأن تكوّن اللغة العربيـة الفصحى ، ولعل الاختلاف الأبرز هو أنَّ هذه النظرية قد حددت المكان الذي تكوّنت فيه الفصحى – وبحسب ما تقـول – هو مملكة الحيـرة في جنوب العراق ، في حين إنّ ولفنسون لم يحدد المكان.

٨- أثبت البحث عدم صحة مقولة نظرية الحقب في أنَّ سـلطة الحيرة فرضت العربية الفصحى على القبائل التي دخلت تحت سـيطرتها ، وذلك لأنَّ تاريـخ اللغات والـدرس اللغوي المعاصر يؤكـدان أنَّ التغاير اللغوي مهما كان بسـيطاً لا يكون اختياراً ، أو بمعنى آخر أنَّ اللغة تتشـكل ولا تُفرض.

٩- أكـد البحث أنّ العربية الفصحى لهجة قديمة أو متطورة عن أصل قديم موغل في القدم وليس خليطـاً من لغات شـتّى ، ولعلها من حيث القدم تضـارع الأكديـة أو هي أقدم منهـا. وقد حاول بعض الباحثيـن على اختلاف توجهاتهم معرفة الأصل الذي تطـورت عنه الفصحى وذلك من خلال الدراسـات اللغويـة المقارنة ، ولكن هذه المحـاولات لـم تنته إلى شـيءٍ ذي بال ؛ وذلك لأنّنا نفتقر إلى حلقات الأولى من تاريخ العربية الفصحى.

١٠- أثبـت البحـث أنَّ تفسـير نظريـة الحقب لمسـألة دخـول (ال) التعريـف إلـى العربيـة الفصحى مقبول من الناحية التاريخية والمنطقية في ضوء التأثر والتأثير بين اللغات ، مع الأخذ بنظـر الاعتبـار أنَّ هذا التفسـير لا يختلف من حيـث النتيجة عـن القول الـذي يرجحه علماء السـاميات ، وهو أنَّ (ال) التعريف في العربية الفصحى متطورة عن (الهاء واللام) .

١١- أثبتت البحث ضعف مقولة نظرية الحقب فـي أنَّ العربية الفصحى تكونـت ونضخت ثم انتشرت في زمن قياسي ، أي ما بين (٢٦٨م – ٤١٠م) ، فهذه المـدة الزمنية على وفق معايير اللسانيات المعاصرة لا تكتفي لظهور لغة جديدة ، فضـلاً عن أنّها مثـل العربية الفصحى – كما هي الحال في الشعر الجاهلي – تمثل قمة النضج في مستوياتها كافة ، وهذا النضج اللغوي – كما نعتقـد – وليـد مرحلة طويلة يتجـاوز تاريخها

عصر الحيرة بقرون كثيرة.

المصادر والمراجع:

خير ما نبدأ به القرآن الكريم

١. ابراهيم أنيس (الدكتور) : دلالة الألفاظ ، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م.

٢. ابراهيم أنيس (الدكتور): في اللهجات العربية، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ٢٠٠٣م.

٣. ابراهيم السامرائي (الدكتور) : التطور اللغوي التاريخي، الطبعة الثانية، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٧م.

٤. ابراهيم السامرائي (الدكتور) : العربية بين أمسها وحاضرها ، وزارة الثقافة والفنون، بغداد ، ١٩٧٨م.

٥. ابراهيم السامرائي (الدكتور) : فقه اللغة المقارن، الطبعة الرابعة ، دار االعلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨١م.

٦. أحمد المختار عمر (الدكتور) : البحث اللغوي عند العرب/ مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، الطبعة الثانية، عالم الكتب ،القاهرة ، ١٩٧٦م.

٧.أنيس فريحة : نظريات في اللغة ، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨١م.

٨. أ. ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٨٠م.

٩. تمام حسان (الدكتور) : اللغة بين المعيارية والوصفية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٩٢م.

١٠. الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ه) : الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، دون تاريخ.

١١. ج. فندريس:اللغة، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص،المركز القومي للترجمة،القاهرة، ٢٠١٤م.

١٢. ابن جني ، ابو الفتح عثمان (ت ٣٩٢ه) : الخصائص ، تحقيق : محمد عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية ، عالم الكتب، بيروت ، ٢٠٠١م.

١٣. جواد علي (الدكتور) : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، مكتبة النهضة، بغداد ، و دار العلم ، بيروت، ١٩٧٣م.

١٤. ابو حاتم ، سهل بن حمد السجستاني (ت ٢٥٥ه) : فعلتُ وأفعلتُ ، تحقيق : د. خليل ابراهيم العطية ، مطابع جامعة البصرة ، ١٩٧٩م.

١٥. حارث مهدي الغانمي (الدكتور): لغة قريش/ دراسة في اللهجة والأداء، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٩م.

١٦. ابـن حزم الأندلسـي، علي بـن أحمد (ت ٤٥٦ه): الإحـكام في أُصـول الأحكام ، مطبعة الإمام، القاهرة، دون تاريخ.

١٧. خالـد اسـماعيل (الدكتـور) : فقـه لغات العاربة المقارن/ مسـائل وآراء، مكتب البروج ، أربد، ٢٠٠٠م.

١٨. الـرازي ، فخر الديـن محمد بن عمر (ت ٦٠٦ه): التفسـير الكبيـر أو (مفاتيح الغيب) ، الطبعـة الرابعة ، دار الكتـب العلمية ، بيروت ، ٢٠١٣م.

١٩. الراغب الإصفهاني ، ابو القاسـم الحسين بن محمـد (ت ٥٠٢ه) : المفـردات في غريب القرآن ، دار إحيـاء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨م.

٢٠. رمضان عبد التواب (الدكتور): فصول في فقه العربية ، الطبعة السادسة، مكتبة الخانجي، القاهرة،١٩٩٩م.

٢١. رمضان عبـد التواب (الدكتور) : المدخل إلى علم اللغـة ومناهج البحث اللغوي ، الطبعة الثالثة، مكتبة الخانجي ، القاهرة ،١٩٩٧م.

٢٢ الزجاج ، ابو إسـحاق إبراهيم بن السّـرى (ت ٣١١ه) : معانـي القرآن وإعرابه ، شـرح وتحقيـق: د. عبـد الجليـل عبده الشـلبي ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٤م.

٢٣. الزركشي ، بدر الدين بن محمد بن عبدالله (ت ٧٩٤ه) : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق: محمـد أبو الفضـل إبراهيـم ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٢٤. زهيـر غـازي زاهـد (الدكتور):العربية والأمن اللغوي / نظرة معاصرة ، دار الشؤون الثقافية، بغداد ،٢٠١٢م.

٢٥ سعيد الغانمي : ينابيع اللغة الأولى ، مقدمة إلـى الأدب العربـي منـذ أقدم عصـوره حتى حقبة الحيرة التأسيسـية، هيئة أبـو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي ،٢٠٠٩م.

٢٦. سـمير شـريف اسـتيتية (الدكتـور): اللسـانيات،المجال والوظيفـة والمنهـج ، عالم الكتب الحديث، أربد ، الأردن ،٢٠٠٨م.

٢٧. سـيبويه، عمـرو بـن بشـر (ت ١٨٠ه): الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار القلم، القاهرة ، ١٩٦٦م.

٢٨. السـيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ه) : المزهـر فـي علوم اللغـة وأنواعها ، تحقيـق: محمـد أبـو الفضـل إبراهيـم ومحمد جـاد المولى وعلـي محمد البجـاوي ، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٩م.

٢٩. صبحي الصالح (الدكتور): دراسـات في فقه اللغة ، الطبعـة الثالثة ، دار العلم للملايين، بيروت ،٢٠٠٩م.

٣٠. الطباطبائي، العلامة محمد حسين: الميزان

في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ، ١٩٩٧.

٣١. ابن عقيل ، قاضي القضاة بها الدين عبدالله (ت ٧٦٩ه): شرح ابن عقيل ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،الطبعة العشرون ، دار التراث،القاهرة،١٩٨٠م.

٣٢. علي عبد الواحد وافي (الدكتور): فقه اللغة ،الطبعة السادسة ، مطبعة الرسالة، القاهرة،١٩٦٨م.

٣٣. ابن فارس، ابو الحسين أحمد بن فارس (ت ٣٩٥ه) : الصاحبي/ كتاب في فقه اللغة ، تحقيق : الشيخ أحمد الصقر ، مؤسسة المختار للنشر،القاهرة،٢٠٠٥م.

٣٤. كاصد ياسر الزيدي (الدكتور): فقه اللغة العربية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل ،١٩٨٧م.

٣٥. مجموعة من الباحثين: الواقع اللغوي العربي القديم ، بيت الحكمة ، بغداد ، ٢٠٠٦م.

٣٦. محمد جواد مغنية : التفسير الكاشف ، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ، أسوة ، ٢٠٠٣م.

٣٧. محمود فهمي حجازي (الدكتور): علم اللغة العربية / مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية ، دار غريب للطباعة، القاهرة ،دون تاريخ.

٣٨. مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ه) : صحيح مسلم ، بشرح النووي: يحيى بن شرف (ت٦٧٦ه) ، مطبعة محمد علي صبيح ، مصر، ١٣٣٤ه.

٣٩. مصطفى الغلاييني: جامع الدروس العربية، الطبعة الحادية عشر، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ، ١٩٧٢م.

٤٠. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١ه): لسان العرب ،الطبعة الرابعة، دار صادر ، بيروت ،٢٠٠٥م.

٤١. هاشم الطعان (الدكتور) : الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة، منشورات وزارة الثقافة والفنون، دار الحرية للطباعة ، بغداد،١٩٧٨م.

٤٢. ولاء صادق (الدكتور): دراسات لغوية بين العربية ولهجات شبه الجزيرة العربية، دار دجلة،عمان- الأردن ،٢٠١٧م.

٤٣. ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦ه): معجم البلدان، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٥م.

مصادر الأنترنيت : مملكة الحيرة

Wiki hattps :// ar.m. wikip edia.org